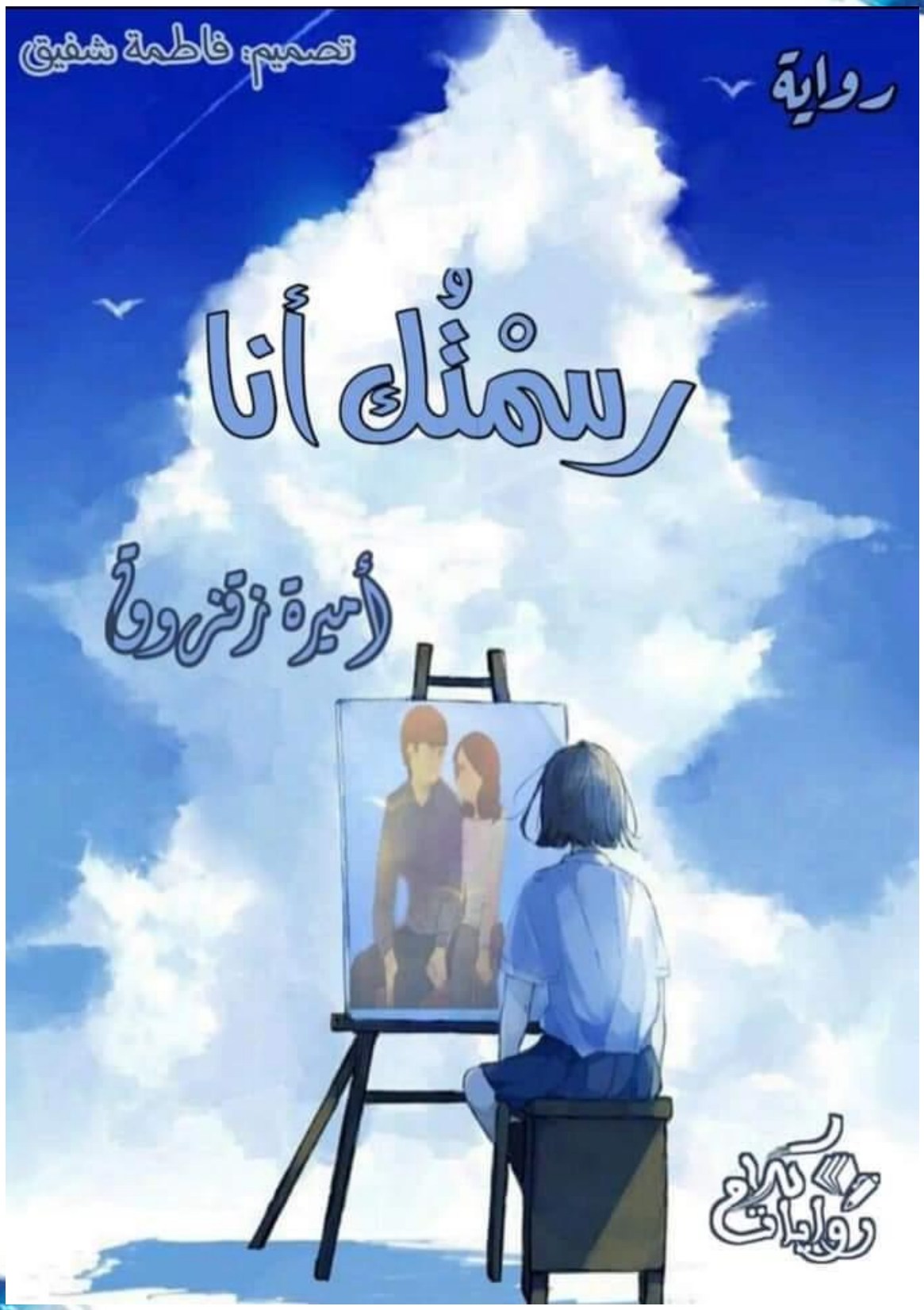
تصميم: فاطمة شفيق
رواية
رسمتك أنا
أميرة زقزوق
روايات بلا حدود

رواية " رسمتك أنا"

للكاتبة أميرة زقزوق

(الفصل الأول)

تلك الأوقات التي تصبح حياتك محاطة بالضياع والتوهان، وحين تحاول فك الشفرات تظن في البداية أنك في الطريق إلى الاستيعاب ولكن تظهر لك الحقيقة خلف رداء الحيرة فتدرك أنك لا تفقه من الأمور شيئًا ثم تقترب أكثر فأكثر علّ رداء الغموض ينخلع ولكن ما إن تقترب حد الفهم سرعان ما تطرق مطرقة الحقيقة فوق رأسك معلنة راية الإنكار ليصبح كل شيء مبهما حتى الحقيقة ذاتها،

لم أكن يوما بتلك المشاعر المتخبطة وإحساس الإنكار الذي يتغلفني كيف وأنا فريدة التي كانت دائمًا وأبدًا مثال القوة والثبات، أجلس في زاوية غرفتي أهرب من كل شيء أضم قدماي إلى صدري بذعر حقيقي، يكاد يجن عقلي وهو يحاول ربط الأحداث التي كانت مجرد مصادفات بالنسبة لي وقتها وأحاول معرفة كيف وصل بي الحال إلى هنا.

كانت البداية عندما قررت أن أقل الحافلة بدلًا من سيارة الأجرة، لا لشيء سوى أنني أردت قطع ملل الروتين الذي بدأ يدب حياتي بعدما أنهيت دراستي الجامعية في كلية الفنون التي لم أكن شغوفة بالدراسة بها إلا أنها كانت أياما مثيرة حقًا فدائمًا كنت أُلقب بالمجنونة، ذاك أني مرحة إلى حد بعيد لا أحب السكون أو ألجأ إليه حياتي أحبها صاخبة مليئة بالإثارة وإن لم تكن موجودة أفتعلها أنا!

اقتربت الحافلة ووقفت أمامي تدعوني للدخول تشبثت بحقيبة يدي وكأني آخذ منها الطاقة وقفزت بالداخل ولأن جسدي نحيل جاءت القفزة واسعة إلى حد لا يتناسب مع فتاة من المفترض أن تكون عاقلة بعد أن تجاوزت الرابعة والعشرين من عمرها، شعرت بالحرج عندما اكتشفت أني اصطدمت بأحدهم دون قصد فنظرت إليه كي أعتذر، ولكن حين نظرت لعينيه الحادتين تحت جبينه الواسع قفزت إلى عقلي صورة له بملابس رثة خلف قضبان الحديد بسجن ينظر إلي برجاء، أقسم أني رأيته بهذه الحالة من قبل ولكن أين ومتى وكيف؟ وأنا لم أطأ السجن من قبل؟! أتى صوته الرخيم فتلاشت الصورة وهو يقول لي : أهناك شيء؟

انتبهت أنني كنت أنظر إليه بتمعن فسرى إليّ قليل من الإحراج وحركت نظري بعيدًا وأنا أفكر بالصورة التي تتجلى ملامحها واضحة أمامي بشكل غريب، ولكن لم أستمر بالتفكير حين وجدت نفسي أنظر إلى الناس جميعهم وبلا استثناء أشعر وكأنني أعرفهم حق المعرفة، ملامحهم جميعا مألوفة إلي قلبي الذي غاص مكانه، وأكاد أقسم أني رأيتهم جميًعا من قبل ولكن متى! حقًا لا أعلم .. حاولت

تهدئة أنفاسي المتلاحقة ونظرت إلى المرأة التي كانت تقف جواري وكانت للأسف الشديد مثلهم تماما مألوفة إلى حد كبير، كان بياضها مشرب بحمرة لذيذة تضفي على حسنها حسنًا وشعرها البني زاد من رونقه انعكاس أشعة الشمس فوقه، سألتها بغتة: ما اسمكِ؟

نظرت إلي بعينيها البنيتين وقالت باستغراب: لبنى وأنتِ؟

قلت وأنا أحاول التركيز أكثر في محاولة تذكر كل من قابلتهم بهذا الاسم: فريدة، هل تقابلنا من قبل؟

رفعت حاجبيها الناعمين وقالت ببرود : لا أظن، ثم التفتت إلى الناحية الأخرى كإعلان منها عن انتهاء الحديث الذي بدأته للتو.

نظرت حولي مجددا وعقلي أشعر به يكاد يجن فأنا بطبيعة الحال فضولية إلي حد كبير فما بالك إن كنت وسط أناس على يقين أني رأيتهم جميعًا من قبل بلا استثناء!! انتابني إحساس شديد بالغضب من هذا الموقف العجيب وتمنيت بشدة لو أقفز من هذه الحافلة التي ستجعلني أفقد عقلي بالتأكيد، تعمدت النظر أسفل مني كي يهدأ عقلي ولا أتعب نفسي في التذكر، اهتز جسدي حين وقفت الحافلة فتنهدت بعمق، ترجلنا جميعًا منها وكنت الأولى وأسرعت الخطى كي أبتعد عنهم وكأنهم وحوش، وبدون سابق إنذار صدمني أحدهم من الخلف ووقعت على وجهي فنظرت إليه بغضب لأجده يمسك حقيبتي ويعدو بسرعة لم أرَ مثلها من قبل، ولكن لست أنا من تستسلم كونها فتاة، تحاملت على نفسي ونهضت أركض خلفه بكل ما أوتيت من قوة فمهما حدث لم ولن أقبل الهزيمة، هذه هي أنا، اصطدمت بأناس كثر

وكدت أصطدم بسيارة ولم يهمني وقتها شيء سوى ألا يفلت من بين أنظاري، ابتسمت ابتسامه كانت بدايتها من أعماق قلبي وانتهت على شفاهي حين رأيته يصطدم بصخرة كبيرة كانت إثر هدم بناء ما، ويبدو أنه قد أصيب فلم يقف بعدها، هدأ عدوي وجنت ضربات قلبي وبدأت أنفاسي تتسارع مع الزمن كي تلبي حاجة جسدي من الأكسجين، وحين اقتربت منه تحول عدوي إلى مشي ثقيل فكنت أجر قدمي جرًا، كان يمسك قدمه المصابة ويتأوه وجعًا وحين أصبحت على قدم منه نظر إليّ... فشهقت

إنه هو! نفسه رجل الحافلة الذي رأيته من قبل في السجن، إنه بالفعل حرامي، ليست مجرد صورة من خيالي إنها حقيقية، وقفت ألتقط أنفاسي وهو ينظر إلي بحقد الخاسر أمام من انتصر عليه، سألته بتعالِ: لم تنظر إلي هكذا؟!

قال من بين أسنانه المطبقة: ما بها حقيبتك كي تخاطري هكذا وتتبعينني كل هذه المسافة؟ !

تلمست الحنق في صوته وأعجبني أنه ساخط من ملاحقتي له فارتميت بجواره ضاحكة والتقطت الحقيبة من بين يديه تحت نظراته المتعجبة وقلت: لا يوجد بها شيء مهم سوى بعض الجنيهات التي لا تكفي أحدًا .

قلت هذا وأنا أفرغ ما بها وأمسكت المرآة أهندم مظهري فسمعته يصرخ معترضًا : ماذا؟ ألهذه الأشياء التافهة قطعتِ كل تلك المسافة خلفي؟ !

استدرت إليه وقد أوشك السخط أن يكتب فوق جبينه وقلت بهدوء أدهشه؛ ليست الأشياء التافهة بل أنت هو التافه، أتركت كل الأغنياء وجئت خلفي أنا حقًا إنك لأبله!

أغضبته جملتي وحاول الاقتصاص لنفسه بجملة تسيء لي كما أسأت إليه إلا أن وجع قدمه خانه فانطلقت منه صرخة وجع أفزعتني فنظرت لقدمه وجدتها تنزف دون توقف استرعاني منظرها فقد كانت الدماء كثيرة، قلت له وأنا ألملم أشيائي: سأحضر لك مطهرًا ولاصقة طبية من أي صيدلية هنا .

قال بتهكم: لا داعي لقول هذا لن أتبعكِ مجددًا فلا تخافي.

لم أجبه فمثله بالتأكيد لا يثق بأحد، ابتعت ما يلزم من الإسعافات الأولية وعدت إليه فلم أجده؛ ولكن كيف استطاع السير فجرحه غائر؟

التفت كي أبحث عن سيارة أجرة فأنا لا أعرف المكان ليأتيني صوته من خلفي: لمَ لم ترحلي بعد !

رأيته يقف بصعوبة فقلت له: اجلس كي أضمد لك جرحك،

قال وهو يجلس على الأرض: أنتِ غريبة أتعلمين هذا !

لم أجبه وجلست أمامه أضع المطهر ثم قطعة قطن ولففتها بالشاش الطبي لم أكن خبيرة بمثل هذه الأمور ولكني أتذكر أن أمي كانت تتصرف معي هكذا عندما كنت أؤذي نفسي في صغري؛ فور أن انتهيت فاجأني سؤاله وكأنني عدت من الماضي : من المفترض أن تخافي وتهربي!

قلت وأنا أنهض: وهل أنت ممن يُخاف منهم !

وقف بعصبية وقال بغضب طفولي : ولمَ لا؟ !

ضحكت ضحكة خفيفة فمنظره أبدًا لا يدعو للخوف البتة، فحين تنظر إليه تجده رجل أربعيني دقيق الملامح وكأنه خُط بقلم فنان، فوجهه بيضاوي مناسب للون بشرته الخمرية وحاجباه رفيعان يعكسان ظلهما فوق عينيه الحادتين يقفان فوق أنف دقيق أما فمه فكانت شفته السفلى ممتلئة قليلًا عن العليا وبالرغم من حدة ملامحه إلا أنه حين يتحدث تشعر به شخصا وديعا لا يتلاءم أبدا مع كونه لص، شعرت بالتعب وهممت بتركه فاستوقفني قائلًا: أتعلمين طريق العودة لمنزلك؟

قلت بتهكم: السؤال ليس بأمر صعب، أم أنك تشعر بالذنب!

تجاهل نبرة تهكمي وقال: يمكنني إيصالك إن شئتِ

ارتفع حاجبي وقلت له: حسنًا إذا يكن جميلا منك .

مشينا بعض الأمتار دون أن ينبس أحدانا ببنت شفة كان صمتي إرهاقًا أما صمته فأظن لأنه بطبيعة الحال ليس ثرثارًا مثلي، قلت له عندما مللت الصمت: يبدو من هيأتك أنك ميسور الحال، لمَ السرقة إذن؟ !

تابع سيره ولم يجب فاستفزني تجاهله لي وقلت بحنق: لا يوجد لديك تفسير أليس كذلك؟ فمثل هذا التصرف لا يبرره شيء .

أشرت لملابسه باستهجان وتابعت قائلة: كما ولا شك أن ملابسك المنمقة هذه من مال سرقته .

لم يلتفت إلي ولكنه تحدث بهدوء مخالف تمامًا لعصبيتي: لست لصًا .

ضحكت باستهزاء وقلت : نعم نعم لست لصًا ولكنك أردت حقيبتي لتأخذ معها سيلفي.

هنا نظر إلي بهدوء وقال بصوت رخيم يشوبه حزن انبثق من جوف عينيه وأنا أطالعه: أنا مريض بمرض السرقة إنما صدقيني لست لصًا.

(الفصل الثاني)

لم يلتفت إلي ولكنه تحدث بهدوء مخالف تمامًا لعصبيتي: لست لصًا .

ضحكت باستهزاء وقلت : نعم نعم لست لصًا ولكنك أردت حقيبتي لتأخذ معها سيلفي .

هنا نظر إلي بهدوء وقال بصوت رخيم يشوبه حزن انبثق من جوف عينيه وأنا أطالعه: أنا مريض بمرض السرقة إنما صدقيني لست لصًا.

وقفت عن السير وسألته باستغراب: كيف ذلك؟

لم يبالي لتوقفي فسبقني بخطوات قائلًا: أكملي سيرك

أسرعت الخطى حتى لحقته وسألته: ماذا تقصد بمرض السرقة؟ !

- ألم تسمعي عنه من قبل؟
- سمعت عنه في الأفلام ولكن لم يسبق لي بمعرفة شخص لديه هذا المرض.

أنهيت جملتي بحماس شديد فنظر إلي متعجبًا، فانتابني الحرج من تصرفي هذا فمرضه ليس بشيء يفتخر به، صمتُ وصمت هو وبعد دقائق لا أعلم عددها كنا قد وصلنا لمنزلي، قال وهو لا ينظر لعيني: شكرًا على الإسعافات التي قمتِ بها .

قلت وأنا أحاول أن أضفي الحماس على الجو، فحرجه من مرضه كان واضحًا: لا عليك لم أفعل شيئًا، إصعد معي لنحتسي الشاي سويًا .

قال ومازالت عيناه تحومان دون أن ينظر نحوي : لا شكرًا لقد تأخرت على زوجتي .

أردت أن أزيل عنه الحرج نهائيا فمددت يدي أصافحه قائلة: مارأيك بأن نصبح أصدقاء؟ !

هنا نظر إلى يدي ثم نظر إلي وقال: ألا تخشي مصادقة رجل مثلي؟

غمزت له قائلة: أنا لا أخشى شيئاً .

ابتسم إبتسامة خفيفة ثم مد يده يصافح يدي : سبق وأن علمت هذا.

شعرت بسعادة حقيقية لقبوله طلبي وطلبت منه أن يأتي لزيارتي يومًا مع عائلته فوافق، ثم ودعني قائلًا: إلى اللقاء يا.... ما اسمكِ؟ !

ضحكت بشدة وشاركني الضحك فقلت له : فريدة.

قال: أنا حسن .

دلفت إلى المنزل ببطء شديد وحذر كي لا أوقظ والدتي فقد تأخرت بالخارج وهذا يغضب أمي تماما مثلما يغضبها أن أترك النور موقدًا، أجفلت بشدة عندما ظهرت أمامي من العدم تربع يديها وتنظر إلي بتوعد، ازدرتُ ريقي وشحذت نفسًا عميقا أهدئ قلبي وتوجهت إليها أحاول تملقها: ما بكِ يا جميلة لمَ تنظرين إلي هكذا، وكأنك تنوين قتلي؟ !

أبعدتني عنها وقالت بعدما رمقتني بنظرة نارية: سوف أقتلك بالفعل إن لم تكفي عن التأخر بالخارج هكذا .

استطردت وهي تتجه إلي أقرب مقعد لتجلس عليه: أنتِ تعلمين أني سريعة القلق، لمَ إذن العناد؟!

جلست وجلستُ أمامها على ركبتي وأمسكت بيدها وقلت بنبرة استعطاف: أنتِ حقًا ظالمة.

رفعت حاجبيها : أنا هي الظالمة يا أكثر بنت متعبة في الكون كلهِ؟ !

عقدت حاجبي وهززت رأسي بنعم وقلت بحزن مصطنع: أنت حتى لم تسألي عن سبب تأخري وبدلًا من هذا تهددينني بالقتل !

انتابها القلق مرة أخرى وسألتني بفزع: ماذا حدث معكِ أخبريني .

ابتسمت لها كي تهدأ وقلت: لا شيء خطير لقد تعرضت للسرقة ولكن حللت الأمر .

انتفضت واقفة وصرخت بهلع: ماذا تقولين، هل تأذيتي هل يجب إخبار الشرطة، لابد أنهم أفزعوكِ يا صغيرتي انتظري لأحضر لكِ كوبا من الماء .

أوقفتها وأنا أضحك : ماذا بكِ يا أمي ها أنا ذا أمامك سليمة لم ينقصني أو يصيبني شيء، أنا فقط متعبة وأود أن أخلد للنوم .

رقت ملامحها وتبدل فزعها حنانًا وقالت بحنو: حسنًا صغيرتي إذهبي لغرفتك ولكن غدًا ستقصي عليّ ماحدث لك .

قبلت جبينها وتوجهت لغرفتي وشعور بداخلي قوي أن السرير يناديني إليه، لولا يقيني أن أمي ستتفقدني في نومي لكنت نمت بملابس الخروج، رميت حقيبتي وتوجهت للدولاب أبحث به عما أرتديه فوجدت بيجامة نوم ارتديتها ووقفت أمام المرآة أجمع شعري المتناثر كي لا يزعجني أثناء نومي، كنت أنظر لعيني الواسعتين بنيتي اللون فتذكرت تلك المرأة بالأتوبيس مازال بداخلي شعور قوي أني رأيتها من قبل ولكن أين؟ لا أتذكر وكأنما قد شل عقلي، التقطت منديلا لأزيل أحمر الشفاه غامق اللون الذي كان يخنق شفتاي حتي ظهرتا بلونهما الوردي، جلست على السرير أفكر بما حدث وبهؤلاء الناس وإحساسي بأنني أعرفهم من قبل بمن فيهم حسن هذا الذي يعاني من مرض السرقة! لا أنكر أنه قد أخذ من تفكيري الجزء الأكبر.

***

فريدة

صوت عذب ينادي اسمي من مكان أجهل تحديده، يتكرر النداء وأستمر بالبحث عن مصدره، الخضرة تملأ المكان وكأنه قطعة من الجنة، رائحة عذبة تتخلل أنفاسي فتنتعش روحي، "فريدة" يأتي الصوت الندي من خلفي فألتفت ولا أجد صاحبه وإنما أجد منظرًا خلابًا يخلع القلب من مكمنه، يرتسم اسمي بالورود الندية وكأنما فنان قد أبدعه فوق الأرض ليخطف لب عقلي، يتنادى اسمي على مسامعي متلازما مع

قراءتي له فالتفت لمصدر الصوت ليتوقف قلبي للحظة فقد ظهر صاحبه، لا أعرف من هو! ولكن القلب يميل بفطرته للجمال فمال قلبي له، ينظر إلي بنظرة تجعل قلبي يكاد يقفز من بين ضلوعه ليحلق بعيدًا بعيدًا حيثما السعادة تكون، ولكن من قال إن السعادة ليست به الآن، تأملت ملامحه وهو ينظر إلي بتمعن كانت عيناه العسليتان مسحوبتان وعند نهايتهما يرتسم خطين إثر ابتسامته الواسعة، بريقهما أثرني! أنفه تقف بشموخ فوق فمه الرقيق، ذقنه مسحوبة وكأنه رُسم بفيلم كرتوني، ناداني باسمي مرة أخرى فارتجف قلبي عندما مسه صوته! اقترب أكثر مني حتى صار أمامي مباشرة وهم بالحديث ..

العينان المسحوبتان اتسعتا تدريجيًا لتصبحان واسعتين، وجهه الرفيع أصبح دائريا، ملامحه المحببة للنفس أصبحت أكثر قربًا لي، تلاشى وجهه ببطء فظهر وجه أمي وهي توقظني" فريدة ما كل هذا النوم، يا إلهي خالتك تنتظر منذ مدة بالأسفل" تركتني عندما وجدت عيناي انبثقتا فتوجهت نحو الشرفة تفتحها على مصراعيها لتهجم أشعة الشمس على الغرفة وهذا أكثر شيء يستفزني والأدهى أن أمي تعلم ذلك وتتعمده !

عادت إلي بابتسامة واسعة لطالما كانت لي البلسم الشافي، جلست وهي تقول: جاءت خالتك منذ الصباح ومعها جارتها تلك التي حدثتك عنها، يبدو أنهما يحبان بعضهما كثيرًا .

ابتسمت لتأثر أمي وقلت لها: خالتي مثلك تماما يا أمي ذات قلب أبيض نقي تحب الجميع وتصادقهم .

قالت وهي تتطلع إلي بابتسامة تأثر على وجهها: أختى حبيبة حرمها الله من الذرية رغم ما بداخل صدرها من حنان يكفي الجميع ويفيض، لكن الله له أمر في ذلك .

أخذت نفسًا عميقًا وكأنما تدفن به الحزن داخلها واستأنفت بابتسامة خفيفة: ولكنه رزقني بكِ قبل موت والدك ببضعة أشهر وكأنه سبحانه يحنو علي بهدية مثلكِ لتكوني لي الشفاء من المرض، لذا لم أصادق أحدًا ولم أرَ غيرك ولا أريد سوى أن أكون لكِ ومعكِ .

نهضت من السرير لأقبل رأسها وقلت بمرح كي أغير دفة الحديث: لا حرمني الله منكِ يا أمي ولكن هل ستظلين تثرثرين وتتركين أختك هكذا بالأسفل؟ !

وكزتني في كتفي وهي تضحك وقالت أثناء خروجها من الغرفة: هيا اجهزي وتعالي فقد استوحشتك خالتك كثيرًا .

أفزعتني عندما طلت بوجهها مرة أخرى من وراء الباب وهي تصيح: هل تظنين بأنها أحضرت لكِ عريسًا يأخذك مني؟ إن كان كذلك حقًا سأقتلها .

انتابتني موجة من الضحك عندما ذهبت مرة أخرى دون أن تنتظر جوابي، توجهت للحمام المرفق بغرفتي وتركت جسدي للماء يزيل عنه أثار النوم المتبقي، وكنت أسرح بين الفينة والأخرى، أتذكر هذا الذي ظهر لي في الحلم، كم كانت ملامحه مريحة وقريبة للنفس بشكل لا يكاد يوصف، جففت جسدي وارتديت بنطالًا من الجينز وبلوزة بيضاء بأكمام طويلة، ارتسمت ابتسامة على شفتي وأنا أمشط شعري أمام المرآة عندما

تذكرت رأي أمي في طريقة ملابسي وأنها تناسب الشباب أكثر من الفتيات، خرجت من غرفتي وتتبعت أصوات ضحكاتهم حيث كانوا جميعًا في غرفة الصالون ولم أشعر بنفسي إلا وأنا داخل أحضان خالتي التي أخذت تتسابق مع الزمن في رص القبلات على جميع أنحاء وجهي، انفلت من بين يديها بصعوبة وأنا أشحذ أنفاسي التي عصيت عليّ داخل جسدها الممتلئ خرج صوتي بصعوبة بين أنفاسي المتقطعة: ما بكِ يا سوسن من يرى يظن أنكِ لا تأتي لزيارتنا كل يومين.

أمسكت وجهي بلهفة حقيقية بين كفيها وقالت بنبرة يحملها الشوق وصوت يقطر حنانًا: ألا تشتاق الأم لابنتها؟

لمست مشاعرها وترًا داخل قلبي فهي لي أمي الثانية قلت ضاحكة علّني أخبئ مشاعري التي لا أعلم لمَ أخجل إن ظهرت للعيان: ألن تتركيني أرحب بضيفتنا على الأقل؟

أرخت يداها من فوق وجهي وأخذت بيدي إلى حيث تجلس السيدة سعاد التي قابلتنا بابتسامة مهذبة فأخبرتها خالتي أنني أود تحيتها بينما كنت أنا بعالم آخر أشد تعقيدًا وحيرة لا متناهية فلم أشعر بيد المرأة التي امتدت لتصافح يداي فقد كنت غارقة بملامحها التي أكاد أجزم أني أعرفها حق المعرفة انتبهت لحديثها وهي تقول: خالتك تحدثني عنكِ ليل نهار وكأنه لا يوجد بحياتها سواك ارتخت يدي داخل يديها بينما جن عقلي وتلفت أعصابي وهي تحاول تذكر أين شاهدت هذا الوجه الحسن من قبل وقلت بصوت شعرت به يمثل للحيرة نموذجًا حسنًا: هل

سبق والتقينا من قبل؟ قالت بابتسامتها المهذبة التي كانت مألوفة إلي حد الاستفزاز: لا حبيبتي هذه أول مرة أراكِ فيها وأنا حقًا سعيدة بذلك .

سألتها مرة أخرى في إصرار لإثبات أني سبق ورأيتها: اذن رأيتك عند خالتي وأنا صغيرة .

أتى صوت خالتي الذي لم يكن واضحًا إثر امتلاء فمها بحبات الفول السوداني: لا يافريدة فخالتكِ سعاد كانت في الإمارات من قبل مجيئكِ إلى هذه الحياة.

هممت بالسؤال مرة أخرى إلا أن صوت والدتي جاء من المطبخ مناديًا باسمي فذهبت إليها حيث وجدتها تحضر وليمة طعام لعشرة أشخاص لا لأربعة فقط، لم أكن بمزاج يسمح لي بالتعليق فتلقيت طلب والدتي بتحضير المائدة بثبات خارجي وتشتت داخلي وبعقل غائب أمسكت صينية الفراخ التي عاقبتني بلسعة حارقة لتنبثق مني صيحة مكتومة لتضحك أمي بجزل وهي تقول: انتبهي ياحمقاء وارتدي القفازات

حملتها بعد أن حصنت يداي هذه المرة وهممت بالخروج من المطبخ إلا أنني تراجعت خطوة للوراء أسال أمي التي كانت منهمكة في تقليب الطعام فوق النار: أمي هل سبق ورأيت السيدة سعاد من قبل؟

وجدتها ترفع ملعقة البازلاء إلى فمها لتذوقها قائلة بجدية: لازالت تحتاج القليل من الملح.

صرخت باستنكار: أمي !

نظرت إلي عاقدة جبينها: ما بكِ يا بنت لمَ الصراخ!

سألتها مرة أخرى بنفاذ صبر: سألتكِ قبل قليل هل سبق ورأيت السيدة سعاد من قبل؟

قالت وهي تضيف حبات الملح: لا لم تريها لمَ السؤال؟

قلت : لأني أشعر وكأني أعرفها حق المعرفة .

قالت وهي تضع البازلاء في الصحون: وماذا في ذلك؟ هذا لأن ملامحها مألوفة وقريبة للنفس ليس أكثر .

أنهت جملتها ثم نظرت إلي وكأنها اكتشفت وجودي للتو قالت بحدة: أما زلتِ هنا؟ لمَ لا تضعين الطعام سيبرد !

تركتها وذهبت لأعد المائدة ثم انضممنا جميعًا إليها تحيطنا رائحة شهية تجعل من يستنشقها يتضور جوعًا وإن لم يكن، كانت أصوات ثرثرتهم تعلو أصوات تخبط المعالق في الصحون، أما أصوات عقلي فقد علت كلاهما يفكر في تلك الجالسة أمامه، انتبهت إلي يد خالتي تلوح أمام عيناي وهي تقول: أين أنتِ يا فريدة؟

قلت وأنا أضع القليل من الأرز في الملعقة: ها أنا معكم.

لوت شفتيها وقالت: أسالك إن كنت تودين الذهاب معي إلى الإسكندرية؟

تهلل وجهي وفرح قلبي فهناك فقط أرى البحر وأستنشق هواءه، أقابل صديقي الصدوق حامل أسراري وملهم أيامي نظرت لأمي بحماس لم أستطع التحكم به وسألتها برجاء: فلتذهبي معنا.

كنت أعلم أنها لن توافق ولكن حين يرغب أحد منا بشيء وهو يعلم صعوبته يتمسك بسراب الأمل ليضفي إلى نفسه بعض التشبث، ولكن سرعان ما حل بعض من الحزن محل الفرح بقلبي وهي تجيب بصوت أرهقته الأيام: أنتِ تعلمين يافريدة أني لا أستطيع ترك المكان الوحيد الذي يحمل عبق والدك.

قلت برجاء حقيقي: يومان فقط.

هزت رأسها مؤكدة: ولا حتى يوم واحد لا أقدر على النوم في فراش آخر غير ذلك الذي كان يضم والدك رحمه الله .

لمست نبرة الحزن بصوتها فأردت تغيير دفة الحديث وقلت لخالتي بصوت قصدت إظهار الحماس به فأنا اعلم أن حماس أمي من حماسي بل إن حياتها أصبحت أنا: سآتي معكِ يا خالتي.

(الفصل الثالث)

ما إن غربت الشمس حتى كانت حقائبي على أتم استعداد أخذتها وتوجهت إلي الخارج حيث كانوا ينتظروني فاستقبلتني أمي بابتسامتها الحانية وهي تقول باستنكار: هل أخذت جميع ملابسك أم ماذا؟

قلت ضاحكة : يبدو هذا

لانت ملامحها أكثر وقالت: لا تغيبي عني كثيرًا .

ضممتها إليّ قائلة: لا أقدر

سحبتني خالتي بشدة وهي تصيح بأمي: ما بكِ ياعفاف هل سأخطتف البنت؟

ضحكت أمي وهي تقبلها، ثم ودعناها ثلاثتنا قبل أن نتجه إلى سيارة السيدة سعاد التي بدت فخمة بعض الشيء، حملناها بالحقائب وركبت خالتي إلى جوار السيدة سعاد أما أنا فاتخذت مكاني بالمقعد الخلفي أنظر

إلى الطريق حينًا وإلى الملامح التي تعكسها المرآة أمامي أحيانًا، إلى أن بدأ التعب يدب إلى جسدي فتركت نفسي أستسلم إلى ذرات الهواء التي أخذت تداعب شعري وتتخلل مسام رأسي لتنشر داخله خدر الاسترخاء وبعالم الأحلام غرقت .

شعرت بيد خالتي توقظني وهي تخبرني أن السيدة سعاد تود استضافتنا بمنزلها أولا، فترجلت من السيارة كي أتبعهما وأنا أحاول طرد بقايا النوم العالقة بأهدابي وتوجهت حيث المنزل الذي كان أقرب إلى فيلا صغيرة مكونة من طابقين مزدانة من الخارج بحديقة متوسطة إلى حد ما، ألقيت التحية على البواب الذي ما إن تبينت ملامحه حتى تسمرت مكاني أحدق به، أردت في هذه اللحظه تحديدًا البكاء أو الصراخ، نعم إني أعرفه، ملامحه مألوفة إلى حد بعيد، خط الزمن فوق وجهه علامات العمر وأثقلته الأيام فترهل مرهقًا، ابتسم بعد أن رد التحية قائلًا: هل هناك خطب ما آنستي الصغيرة؟

قلت بصوت يحمل كل معاني الحيرة: ما اسمك يا عمي؟

قال بود: خادمك العم محمود .

سألته بترقب: هل تقابلنا من قبل .

اختفت عيناه إثر ابتسامة واسعة وهو يقول: لا أظن هذا، ولكن شرف كبير لي مقابلتكِ آنستي الصغيرة .

خاب أملي وتشتت عقلي، ما الذي يحدث لي، لمَ أصبحت أرى الجميع وكأنني أعرفهم من قبل؟ هل ما يحدث معي أمر طبيعي كما قالت أمي من قبل؟ أم أن هناك خلل ما؟

سألني العم محمود وقد لاحظ شرودي: هل هناك خطب ما؟

حركت رأسي نافية وقلت له: لا ياعم محمود شكرًا لك .

اكتفى بابتسامة مريحة للنفس فتركته ودلفت كي ألحق بخالتي وسعاد، كان المنزل من الداخل واسعًا إلى حد كبير ويوجد بمنتصفه سلم واسع يؤدي إلى الطابق الثاني أما عن يمينه فكانت تقبع مكتبة عملاقة تثير في النفس وقارًا وتجليلًا، فترى من قرأ كل هذا العلم!! وعلى يسار السلم كانوا يجلسون جميعًا فوق صالون ذهبي ضخم للغاية يبدو وكأنه من عصر المماليك، تقدمت نحوهم وقد لاحظت وجود شاب يدير ظهره إلي وما إن اقتربت منهم حتى شهقت مدهوشة عندما رأيته، إنه حسن !

فصاح بدوره عندما لاحظني قائلًا: فريدة .

سألتنا سوسن وهي تنقل أنظارها بيننا: كيف تعرفان بعضكما .

وقف حسن واقترب مني بابتسامة خفيفة وقال وهو يمد يده نحوي: سبق والتقينا عندما كنت في زيارة لزوجتي أول أمس !!!!!

نظرت إلى يده مشدوهة إنه هنا، كان هذا آخر ما أتوقعه بل إنني بالفعل قد نسيته من الأساس، مددت يدي وفتر فمي عن ابتسامة وقلت له: سعيدة برؤيتك مجددا يا حسن .

اكتفى بهزة خفيفة برأسه وانضممنا إلى المجلس الذي كان يضم امرأتين ورجل ذو مرض نفسي وصينية شاي مصحوبة بالكعك، وفتاة بقلب حائر وعقل غائب.

نشلني حسن من شرودي بسؤاله: كم ستظلين هنا يا فريدة؟

خرج صوتي هادئًا وكان عقلي بمكان آخر على الأقل حسن رأيته من قبل، ولكن أيضًا عندما رأيته كنت أعرف صورة له بمكان ما بعقلي :

لا أعلم أحب الإسكندرية كثيرًا وأعشق البحر .

"أنا أيضا أعشق البحر "

بدا لي الصوت مألوفًا فالتفتت إلى مصدره فتزلزل كياني واختلج قلبي، وقفت بفزع حقيقي واتسعت حدقتا عيناي وكأنهما تحاولان معرفة حقيقة ما تريانه، لقد كان هو بشحمه ولحمه بهيئته الراقية وفمه البسام، بالخطين بجوار عينيه، وتلك اللمعة بعينيه التي أسرت قلبي وخطفت عقلي

"تشرفت برؤيتك يا فريدة لطالما حدثتني الخالة سوسن عنك "

انتفضت روحي وسرى الخدر بعروقي عندما دنا مني بابتسامته الرائعة وخرج اسمي من بين شفتيه الرقيقتين بنبرة صوته العذبة تماما كما الحلم، مد يده نحوي وأنا أنظر إليها ببلاهة حقيقية، وعقلي يكاد يفتكه التفكير ترى ما الذي يحدث معي؟ هل مازلنا في الطريق إلى الإسكندرية وكل ما يحدث معي هنا ليس سوى مجرد حلم عابر سأستيقظ منه؟

أيقظني صوته وهو يستطرد ومازال فمه يحمل نفس ابتسامته الجميلة: أنا ماهر

وكانت يده معلقة في الهواء تنتظر يدي لتستقر بها، ارتفع بصري إلى وجهه واختطلت داخلي المشاعر بين الفزع والدهشة والخوف والبلاهة وأيضًا الانجذاب !

أتاني صوت خالتي موبخًا: ما بالك يا فريدة؟ ألقي عليه التحية لمَ تقفين هكذا؟

لم ينحني بصري عنه ولم يكف هو عن جذب قلبي لملامحه الناعمة وظل الخطان بجانب عينيه يضيفان لجاذبيته جاذبية فوقها، ما هذا الذي أفكر به؟ لا أستطيع أن أحدد شيئا هل أنا معجبة بهذا الرجل، أم أشعر بالفزع منه لأنه هو نفسه الذي أتى لي مسبقًا بمنامي؟ أُرهق عقلي وجن قلبي بهذا الرجل الفتّان، ولكني لم أكن بحال تتحمل المزيد من المفاجآت .

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أفر من أمامه بعدما دفعته من أمامي وانطلقت خارج هذا المنزل العجيب، لحقتني خالتي وهيا تلهث محاولة مواكبة خطواتي السريعة ثم استوقفتني بعنف وقالت بعصبيه نادرًا ما تصيبها :

ماهذا الهراء الذي تقومين به أنتِ؟

وقفت ألتقط أنفاسي الثائرة بصعوبة، لا أدري أبسبب الركض أم بسبب ما يحدث معي مؤخرًا انتهاءً بهذا الماهر !

صاحت بي خالتي مجددا عندما لم تجد مني الرد :

ما خطبك أنتِ لم أعهدك هكذا من قبل؟

قلت وقد تلمست نبرة الرجاء بصوتي فرقت لي :

أرجوكِ أود أن أخلد للنوم فأنا لست بخير .

تنهدت بحيرة وأردفت بحنان: حسنًا فلنعد إلى المنزل الآن وعم محمود سيحضر لنا الحقائب .

ذهبنا إلى منزلها وقد كان على خلاف منزل سوسن تمامًا، فقد كان صغيرًا إلى حد ما وذو أثاث بسيط يتناسب مع خالتي وأم سمير التي تعيش معها لترعى شئونها والتي ما إن دلفت من الباب حتى هرولت نحوي مرحبة ومبتهجة برؤيتي كما عهدتها دائمًا، لم أكن بحال تسمح لي بمشاكستها كما اعتدت أن أفعل معها فاستأذنتهم أن أخلد للنوم وتوجهت إلى غرفتي التي دائمًا ماتظل محفوظة لي .

أنرت الإضاءة فظهرت غرفة متوسطة المساحة، يتوسطها سرير صغير يقف على كل من جانبيه كومود بسيط، وعلى يسار الباب حمام ملحق بالغرفة، وعلى يمينه مرآة بسيطة ودولاب صغير يفي بالغرض، وقفت أمام المرآة فوجدت الفتاة داخلها تطالعني بنظرات تائهة وكأنها تبحث بوجهي عن شيء لا تعلم ما كنهه، وتحول بياض عينها أحمرًا وكأنها انتهت من نوبة بكاء للتو، أبصرتُ نظرات الهلع داخل مقلتيها فلم يعجبني هذا فتغضن جبينها بدورها ردًا على استيائي، توجهت إلى السرير وألقيت بجسدي المثقل بالأفكار عليه، وبقيت ساكنة أما عقلي فلم يكن، ظل يصرخ ويثور لا أعلم ما الذي يحدث أو كيف؟ كيف يظهر هذا الماهر أمامي في الحقيقة تماما كما كان بالحلم؟ تنبهت حواسي

وانتفض عقلي، ترى هل جميع من رأيتهم وكان حدسي يخبرني بأني أعرفهم زاروني جميعهم في المنام من قبل؟

**

من بعيد جدًا جاء صوتي محمولًا على نبرة لطيفة، بعيد ولكن قريب، من تناديني رقيقة الصوت، عقلي يدرك جيدًا أن أحدًا ما يناديني أما جسدي مسلوب الإرادة لا يستجيب، بدأت نبرة صوتها تعلو وتعلو حتى تحولت رقته إلى ضجيج مزعج، جاهدت كي أُباعد بين جفنيّ ونظرت لها بعين نصف مفتوحة وأختها بجوارها مازالت مغلقة، كانت أم سمير تجلس جواري على السرير وابتسمت لي بشدة وكأنها تستعرض أسنانها التي تحول بياضها أصفرًا، قالت ولم تتخلى عن ابتسامتها الواسعة: ما بالك يا فريدة هل جئتِ كي تنامي هيا استيقظي وكفي عن كسلك هذا .

لم أجبها واعتدلت على جانبي الآخر وأخذت الوسادة كي أحتضنها وكنت على وشك السقوط في بحر النوم مرة أخرى إلا أن أشعة الشمس الحمقاء سقطت هادرة على وجهي وكأنها تستفزني وتقول لا مهرب مني أينما ذهبتِ، نهضت بعصبية وجلست على السرير وأنا أتأفف قائلة: أنت وأمي دومًا هكذا، وكأن النوم شيء حرام .

كانت ترتب ملابسي داخل الدولاب وحقيبتي بجوارها لا بد وأنهم أتو بها من منزل سعاد، قالت بابتسامة بلهاء ولدغة تميز أحرفها: نعم حرام، حرام عليكِ أن تتركينا مشتاقين إليكِ ولا ننعم برؤية وجهك الجميل هذا .

وقع مديحها مني موقعًا حسنًا في نفسي وجاءت ضحكتي صادقة من قلبي وكأن مدحها ما كان ينقصني ليتحسن مزاجي وليس مزيدًا من

النوم، وقفت خلفها وأحطت رقبتها بذراعيّ وقلت مشاكسة: من علمك البكش يا امرأة اعترفي؟

أبعدتني عنها بخفة وقالت وهي تنحني لتلتقط قميصي زهري اللون من الحقيبة : دعك من هذا واذهبي لتناول الإفطار مع خالتك .

توجهت للحمام وغسلت وجهي وعدت أسألها بأن تختار لي ما أرتديه كي أغير ملابسي، نظرت لي بجزع وقالت بنظرات فزعة جعلتني أظن بأن هناك خطب جلل :

ماذا تقولين فلتبدلي ملابسك وقتًا آخر لابد وأن خالتك قد نسفت الطعام نسفًا وأنا لن أعد لكِ غيره .

قالت جملتها وهي تدفعني نحو باب الغرفة دفعًا، وما إن خرجت حتى أخذ مني الأمر ثانيتين كي أستوعب ما حصل للتو فضحكت ملئ شدقي، رمقتني خالتي بابتسامة جزلة وسألتني عن سبب الضحك، قلت وأنا أنضم إليها على المائدة وأحاول كتم ضحكاتي التي زادت عندما أبصرتها تتناول الطعام بشهية: إنها أم سمير لا حل لها .

قالت خالتي وهي تضع رغيف الخبز أمامي: أعلم أنه ليس بالوقت الملائم ولكن أود معرفة سبب ما حدث بالأمس.

وقفت يدي التي كانت في طريقها لفمي حاملة قطعة من الطعام، ازدردت ريقي وقد تذكرت الأمس ولابد أن الجميع يتساءل عن سبب ردة فعلي هذه، حتى أنا لا أعلم كيف لم أتمالك نفسي لهذا الحد، رسمت ابتسامة على شفتي لكنها لم تبلغ قلبي وقلت لها بصوت هادئ يشوبه

بعض الرجاء: سأخبرك بالطبع يا خالتي ولكن هل لك ألا تضغطي علي .

اكتفت بهزة من رأسها وأكملت طعامها بصمت، أما أنا وجدت نفسي أفكر بهذا الماهر ترى ماذا ظن بي؟ وكيف كون فكرته عني الآن؟ هل قال لنفسه مجرد فتاة مجنونة؟

ولكن أنا بالفعل مجنونة لقد كان يرحب بي بكل لطف وود، كان عيبًا ما صدر مني، هل يجب أن أعتذر منه؟ حسنًا لأكون صادقة أود أن أراه مرة ثانية، والاعتذار فرصة جيدة ولكن بأي عين سأذهب لمنزلهم ثانية، جاء صوت خالتي قاطعًا لاسترسال أفكاري: هل ستذهبين إلى البحر أم تودين الاسترخاء اليوم؟

دب الحماس في عروقي وقلت بلهفة مشتاق: استرخاء ماذا سأنهي طعامي وأذهب على الفور .

**

دائمًا ما يأسرني بمنظره الخلاب، أحب الوقوف على شاطئه وترك ذرات هوائه تتخلل جسدي كله فأشعر بنفسي خفيفة يطير جسدي بعيدًا بعيدًا وهو في الحقيقة مازال مكانه، أتأمل الأمواج بصمت والابتسامة لا تبرح مكانها فوق شفتي، يخلو عقلي من أي شيء وكل شيء عاداه، وكأنه ممحاة للأفكار التي تثقل النفس وتزود الهم، رأيت خيال أحدهم

يقترب مني ولم أعره اهتمامًا وتابعت تأملي للبحر ونقائه الذي يتسرب بعض منه إلى نفسي

" مظهره خلاب أليس كذلك؟ "

التفتت بسرعة إلى محدثي وقد أدركت على الفور من هو مع أول حرف نطق به، اتسعت ابتسامتي وامتلأ كياني بفرحة عجيبة لمجرد رؤيته أمامي، يبتسم لي ابتسامته العذبة وينظر إلي بعينين جميلتين جعلتا قلبي يرتجف، مد يده نحوي قائلًا بصوته المخملي الذي يجعل قلبي يجن: لم نتعرف جيدًا بالأمس على الأغلب كنتِ متعبة

مددت يدي وأنا أحاول أن أخفي رعشتها ولكني لم أستطع إخفاء تلعثمي قائلة: أنا أعتذر كثيرًا كثيرًا عما بدر مني بالأمس، صدقًا لا أدري ما الذي أصابني، لقد كنت ... لا أدري ولكن حقًا لم اكن على ..ما يرام

أوقفني بإشارة منه وكان مستغرقًا في الضحك مما أتاح لي الفرصة كي أتأمل ملامحه أكثر وشعرت بأن هناك شيئًا غريب بهاذين الخطين جوار عينيه يجعلاني أود لمسهما، قال بصوت يشوبه قليل من الضحك : لمَ كل هذه التبريرات، لم يحدث شيء كي تعتذري عنه أم إنكِ لا تودين أن نتعرف بشكل أقرب.

قلت بلهفة جعلتني أتعجب من نفسي فلم أكن يومًا هكذا: لا لا بالطبع أود هذا.

(الفصل الرابع)

حدجني بنظرة شعرت بها تلقي بقلبي في غياهب التوهان، كيف لعينيه أن تكونا بكل هذا الجمال لقد كانتا صافيتين يعكسان أشعة الشمس

ببريق خلاب، سألني وكأن سؤاله أقرب للتقرير: تحبين البحر وكأنما هو صديق أيامك الأزلي .

أدهشتني نبرته الواثقة وابتسامته الهادئة فوق شفتيه أثناء حديثه وكأنما يقرأ ما تقر به ملامحي وليس كأنما يتوقع، بحثت عن صوتي وقلت بثبات حاولت تصنعه كي لا يفضح أمري: نعم أحبه وهو بالفعل صديق أيامي .

اتسعت ابتسامته الجميلة حتى كادت عيناه تختفيان إثرها وأشار إلى وجهي قائلًا: لا تحبين الركود أو الملل، تبحثين دائمًا عن كل جديد حتى لا تكون حياتك راكدة وتكون حياة حافلة بالصخب تماما كصخب أمواج البحر المتلاطمة هذه.

رجعت خطوة للوراء وكأنما أتجنب رصاصة ستقذفها يده المشيرة نحوي وقلت بنبرة غلفها التعجب: هل تقرأ الأفكار يا هذا !

تجلجلت ضحكته وكأنما ألقيت على مسامعه نكتة للتو ليجيب عن سؤالي من بين ضحكاته التي كانت في طريقها للخمود: ولمَ لا تقولين أني أقرأ الشخصيات؟

لم أجب عن سؤاله ولم ينتظر هو الإجابة قائلًا: هيا إلي منزلنا فالخالة سوسن بانتظارك .

رددت اسمها بدهشة: خالتي عندكم لم تخبرني بهذا !

أجاب وهو يشير إلى أي اتجاه سنذهب: هل لديك مانع من قضاء يومكِ لدينا؟

ابتسمت له قائلة: لابد وأنها أرادت الاعتذار منكم عما بدر مني مساء أمس.

هز رأسه نافيًا : لا أبدًا فأمي هي من دعتها.

أردف بصوت عذب يتنافس جماله مع جمال بسمته : كما أنه يجب أن تنسي ما حدث بالأمس كأنه لم يكن.

سألته وأنا في حيرة حقيقية من ردة فعله الهادئة هذه : وأنت ألم تتساءل عن سبب مافعلته أمس ؟

أجاب ببساطة أذهلتني وهو ينظر للطريق أمامه: لابد وأنكِ رأيتني في منامك من قبل لذا أفزعتك رؤيتي وجهًا لوجه .

تسمرت قدماي وشل عقلي، أنظر إليه بدهشة حتى شعرتُ أن مقلتاي ستخرجان من محجريهما، التفت إليّ وقد إسترعاه منظري ليقول بضحكة خفية: لمَ تنظرين إلي هكذا إني أمزح معكِ، لابد وأن مزاحي ثقيل .

أنهى جملته وهو يحثني على مواصلة السير معه، وأيضًا مواصلة الحديث بيد أن عقلي كان مغيبًا عما ينطق به لساني فقد كان مشغولا بالتفكير فيما قاله للتو بهذه البساطة، يقول إنه كان يمزح ولا يعلم أن مزحته هذه هي عين الحقيقة وما حدث معي تمامًا .

وصلنا لمنزلهم ووجدت خالتي والسيدة سعاد منهمكتين في الحديث أما حسن فقد كان جالسًا مع امراة بدت بهية الطلة ذات جمال محبب للنفس، خمرية البشرة، صاحبة جسد أشبه للامتلاء، قادني ماهر إليها

كي يعرفنا ببعضنا وبدت طيبة اللسان جميلة الروح، أخبرتني أن اسمها جميلة وأخبرتها أنا أن هذا هو مايسمونه" اسم على مسمى "

ارتعد جسدي وكاد يقف قلبي عندما جاء صوت ماهر من خلفي بغتة يصيح بنا :" كفوا عن الثرثرة أود تناول الغداء معدتي تصيح جوعًا "

هبت جميلة واقفة وهي تجيبه بأن الطعام خلال ثوانٍ معدودة سيكون جاهزًا ، أما أنا فأخذت أتأمل هذا الماهر الذي جعلني أتساءل عن ماهية شخصيته إذ بدا عند الشاطئ رزينا يجيد قراءة الشخصيات الماثلة أمامه أما الآن فأنا أرى طفلا يتذمر جوعًا، انتبهت له يحدق بي متسائلًا: ما سر هذه الابتسامة الخافتة فوق شفتيك، فيمَ تفكرين؟

انتبهت إلى أني كنت أدقق النظر إليه فشعرت بالدماء تتدفق إلى وجنتي إثر الحرج، وقلت بينما أشيح بنظري بعيدًا عنه: لا أفكر بشيء .

قال بنصف ابتسامة على شفتيه وكأنما يحاول منع نفسه من الضحك: لا بل كنتِ تفكرين بي.

شعرت بنيران تكاد تلتهم خداي وأخذت أجيل النظر في كل اتجاه عدا عيناه وأنا أدافع عن نفسي بحدة: ولمَ أفكر بك؟

ندت عنه ضحكة قصيرة وهو يقول: اهدأي اهدأي أمزح معكِ ليس إلا .

أنقذني نداء جميلة بأن الطعام جاهز فهرعت إلى الطاولة حيث كانوا جميعًا يجلسون، وكانت تلك أول مرة أرى زوج السيدة سعاد، توجهت إليه بالسلام قائلة: مرحبًا بك يا عمي .

بصوت جهوري أجابني: مرحبًا بكِ يا عزيزتي لقد سعدت بلقائك .

أوقع لقاؤه الهيبة في نفسي فقد كان عكس زوجته ضخم الهيئة، بدا فارع الطول وإن كان جالسًا، ملامحه صارمة إلى حد بعيد وكأنما الابتسام لم يعرف لوجهه طريقًا، اتخذت موضعي إلى جانب أم سمير التي بدت لي مهذبة على غير العادة، ملت برأسي نحوها، وبهمس قلت لها: يبدو هذا الرجل صارما للغاية.

أجابت بنفس نبرة الهمس: يظن نفسه رئيس جمهورية ما، لا أدري كيف تطيقه زوجته الباسمة هذه .

وضعت يدي بسرعة على شفتي أحاول كتم ضحكة أرادت الانفلات من بين شفتي ولكني تداركت الوضع سريعًا، هممت بتذوق الشوربة ولكن استوقفتني عينان تتأملانني بشوق غريب لم أفهمه فقد كانتا عينيّ ماهر الجالس مقابلتي، نظرت له باستفهام فهربت عيناه بهلع وكأنما يخشى أن أقرأ ما بهما، ولكن ما لبثت أن استقرت على حسن الذي ظهر فجأة مثلما اختفى فجأة، انضم إلى المائدة يعتذر لوالده عن التأخر وجفلت حين صرخ به والده ينهره وكأنما ارتكب إثمًا لا عفو عنه، كان الجميع صامتون يعلوهم تعابير الشفقة نحو حسن والاستنكار من والده، أما ماهر فقد كان وجهه يحمل تعبيرا غريبا لم أنجح في فهمه فقد كانتا عيناه مثبتتان فوق الصحن أمامه، وملامحه

ثابتة كما لم أره هكذا من قبل، انتهت وصلة العتاب التي ضخها والد حسن فوق رأسه وأكملنا تناول الطعام في سكون ممل ورتيب لم يقطع الصمت سوى صوت اصطدام المعالق في الصحون، كنت أنظر بين حين والآخر إلى ذلك الماثل أمامي لأجد ملامحه جامدة وكأنما تحول لرسمة بلوحة ما، ولا أخفي أني انتظرت منه نظرة أخرى لكنه خيب أملي ولم يفعل، انتهت وجبة الغداء المملة وانضممنا جميعا لشرب الشاي في الحديقة الخارجية يتحدثون عن أشياء ومواضيع مختلفة لا شأن لإحداها بالأخرى، ولكني لاحظت أن حسن هو الوحيد الذي كان نائيًا عن أي حديث ما، وكأنما القطة قد بلعت لسانه على عكس جميلة التي ما تورات عن إبداء رأيها في كل أمر قد طرح، أما أنا فجلت الطرف أبحث عن هاتين العينين الجملتين فلم أجدهما في أيما مكان وحاولت جاهدة إخفاء ما يعتمر بقلبي من فضول حول هذا الماهر ذو التصرفات التي بدت لي عصية عن الفهم، وبينما نحن على هذه الحال حتى ندت صرخة عن أم سمير، التي بدأت تبحث عن منديلها الذي ورثته عن زوجها كعربون حبه، شعرت بالشفقة عليها فأنا لم أرها في مثل هذا الهلع والخوف من قبل، حتى أننا انقلبنا في أرجاء البيت نبحث معها عنه ماعدا اثنين كانا ماهر الذي اختفى من بعد الغداء أحدهما، والآخر هو والده الذي بدا لا يفعل شيئا في دنياه سوى الانكباب على شغله ومعاتبة ابنه البكري حسن، حسن!! هنا أتى حسن على تفكيري كرة أخرى وأنا أعيد الأحداث بسرعة شديدة داخل عقلي لتنتهي إلى حقيقة كونه مريض بالسرقة، وظننت بل تأكدت من أنه هو من أخذ المنديل ولكن يا للغرابة ما شأنه بمنديل بال لا حيلة منه ،

استدرت على أعقابي أبحث عنه في الحديقة ولكني ما كدت أشرع بالعدو حتى استوقفتني رؤية ماهر بابتسامته الجزلة وهو يدنو من أم سمير مانحًا إياها المنديل واقتربت منهم بدوري كي أفهم مايحدث فسمعت صوته العذب يوضح لها :

"ها هو منديلك رجع لك آمنا وبصحة جيدة "

اقتربت منه أم سمير بهلع لتخطف منه منديلها وتتحسسته بشوق حقيقي حتى أنه قد بلغ قلبي، واستشعرت به واضحًا جليًا وكأنما أنا من كانت في شوق لشيء ما، ولكن تبدد شوقها هذا فجأة، وانقضت على ماهر تقرص ذراعه الذي ندت عنه ضحكة مجلجلة عصفت بقلبي وهزت كياني، قال بينما كان يحاول الانفلات من بين يديها: لمَ !كل هذا العنف؟! ما الذي حدث إنه مجرد منديل لا حول له ولا قوة؟

هنا تركته أم سمير ونظرت لأم عينيه وكانت عيناها ممتلئة بمشاعر حب جارفة لم أكن على علم أنها قد عاشتها من قبل وبصوت غير صوتها تندت عنه قطرات الشوق واللهفة أجابته: إن هذا المنديل هو عربون حب زوجي لي، حين تقدم لخطبتي لم يكن يملك أيما شيء غير قلبي الذي استولى عليه من أول لقاء عابر بيننا وقد أخبرته أني من الحياة لا أريد شيئًا سوى كوخ صغير يأويني وقلب كبير يضمني كقلبه، فأتى لي بهذا المنديل وقد كان ثمنه حينها باهظًا وبكل خجل الدنيا أخبرني أني بالنسبة له كل ما يملك وبكل ما يملك من نقود حينها إبتاعه من أجلي وأهداني إياه .

وهنا توقفت عن الحديث بينما لم تتوقف عبراتها ، تملكني إحساس وشعور غريب لم أشعر به من قبل فقد تسمرت مكاني لا أدري ما الذي يجدر به فعله حينها إلا أن ماهر اقترب منها ليضمها إلى صدره العريض وبصوت تقطر فرحًا قال لها: يالهذا الحب الجارف، أتدرين أمرًا إني لأتمنى أن أحظى بامرأة تحبني كل هذا الحب كالذي يملأ قلبك وتتذكرني دائمًا وأبدًا مثلما تفعلين أنتِ .

قال جملته وهو ينظر نحوي نظرة حزن مصاحبة بضحكة مريرة لم أفهم تعابير محياه ولكن بالرغم مني انتابني شعور جارف بالخجل وأجليت الطرف عنه وأنا أكاد أجزم أن الدم تفجر في وجنتاي .

أتت كل من خالتي والسيدة سعاد وتسألتا في لهفة عن المنديل، وهنا تكلف ماهر عناء إخبارهم بأمر المنديل وأنه وجده، أما أنا فكنت أسال نفسي كيف وحده وهو كان مختفيًا من الأساس، كما أني على يقين من أن حسن هو من سرقه ويثبت هذا أنه لم يظهر حتى الآن، جفلت حين اقترب مني فجأة بابتسامة خفيفة طفت فوق شفتيه الناعمتين، وبثقة قال: لابد وأنك تتعجبين لما حدث .

-أي شيء تقصد؟

اتسعت ابتسامته الخفيفة فبدت أكثر جمالا وهو يقول: أمر المنديل، فعلى الأغلب أنتِ تعلمين أنه لم يكن ضائعًا .

بتر جملته وأثار فضولي فسألته: أولم يكن ضائعًا؟

-لا لم يكن، أنتِ تعلمين أنه كان بحوزة حسن .

استبد بي الاندهاش وبلغ أقصاه وجمدت أنظاري فوقه ولم أنبس ببنت شفة إذ كنت لا أعم ما ينبغي علي قوله، فقطع علي هو حيرتي تلك بأن أجاب أسئلتي غير الملفوظة وكأنما يقرأ ما يدور بخلدي قائلا: أعلم أنه أخبركِ بمرضه .

-وهل هو من أخبرك؟

*نعم. وقد اخذت المنديل منه إذ أعلم أين يضع الأشياء التي يسرقها .

استأنفت أنا حديثه قائلة :

إذن فقد قلت إنك من وجدت المنديل كي تزيل عنه الشبهات .

وبينما أنتظر منه جوابًا حتى فاجأني بردة فعله إذ انحنى بقامته نحوي وبصوت بدا للهمس أقرب قال بجوار أذني فسرى صوته بجسدي كالماس الكهربائي: أريد أن أطلعك على شيء سيعجبكِ كثيرًا .

أنهى جملته وسبقني في طريقه نحو المنزل وتلفت إلي يبحث عني جواره ولم يجدني إذ كنت ما أزال متسمرة مكاني إثر صوته الذي تخلل داخل روحي فتزلزل كياني واختلج فؤادي، أما وعيي فقد رأيته يتناثر أمامي عاجزة عن رده كرة أخرى، وظل هو ناظرا إلي نظرة مفادها الحث على متابعته، ولكن جاءت خالتي تعيد إلي وعيي الذي بدأ يتجمع شيئا فشيئا قائلة: هيا حبيبتي لنعود فقد حل المساء .

قبل أن أجيبها كان ماهر قد قطع المسافة بيننا في لمح البصر موجها حديثه لخالتي: " مازال الوقت مبكرًا لمَ العجلة؟ "

كادت خالتي أن تجيبه ولكن كانت السيدة سعاد السابقة بإجابته: من دأب خالتك سوسن أن تخلد للنوم مبكرا وتستيقظ مع العصافير .

أنهت جملتها بضحكة رقيقه ندت عن شخصية رقيقة مثلها، وبينما كنت أتأمل ملامحه القريبة لنفسي على وجه الخصوص، عصف عبير جميل بروحي إذ اقترب مني ماهر لينحني بقامته مرة أخرى مقتربا إلي بابتسامته التي بدت وكأنها سحر لي بشكل أصبح مستفزا ليصب أذني بصوته المزلزل لروحي قائلًا: " إذن سأنتظركِ في الغد "

خرجت جملته من بين شفتين طفرت فوقهما ابتسامة ندية وخرج من بينهما نبرة واثقة إلى حد بعيد، والحق يقال أني وددت رؤيته أكثر من أي شيء آخر وهذا ما أثار غضبي، إذ بدأت أشعر أنني لسحره أصبحت خاضعة، وهذا بالنسبة لي شيء لا أحبه على الإطلاق، فانطلق جوابي صارخًا معارضًا :

"لا لا تنتظر فأنا لا أريد رؤية ما تود أن تريني إياه "

قال بصوت غلف برداء الثقة: بل تودين ذلك .

بصعوبه بالغة حاولت السيطرة على كل خلجة من خلجاتي كي لا أُظهر حنقي من رده وبغضب بالغ- لا لشيء سوى لكرهي حقيقة أنه قال الصدق- أجبته: كلا لا أريد .

وعلى عكس انفعالي الذي بدا أمامهم مبالغا فيه قابلني رده ببرود : ولكني على يقين أنك تودين ذلك وسواء أجئتي بالغد أم في أي يوم آخر فإنكِ ستأتين آخر الأمر .

أغاظتني عجرفته وثقته الزائدة ورحت أعد الخطى مبتعدة عن مرمى بصره محيية والدته وجميلة اللتان كانتا تتابعان الحديث بتسلٍ، أما خالتي وأم سمير فكانتا تهرولان كي تبلغا سرعتي في المشي ونجحتا آخر الأمر والتحقتا بي عائدات ثلاثتنا إلى منزل خالتي.

(الفصل الخامس)

أتى الصباح سريعًا فتقلبت في فراشي أستجدي مزيدًا من النوم إلا أنه هرب بعيدًا، فنهضت بغير ما تكاسل إذ كنت قد أخذت كفايتي من النوم بل ويزيد، طُرق الباب وقد علمت الطارق من عدد الطرقات الثلاثة المتتالية بسرعة وكأنما تود التسابق فيما بينها، فقلت بينما كنت أمشط شعري أمام المرآة : ادخلي يا أم سمير .

فأطلت برأسها من خلف الباب قائلة بلهجة حسبتها جديدة عليها: صباح الخير يا ست العرائس.

رفعت شعري وأنا أنظر إليها باستغراب قائلة: ست العرائس! ترى ماذا هناك لهذا التملق .

انبثقت داخل الحجرة لتجلس فوق الفراش وقد عهدتها تود التحدث حول أمر ما، فجلست جوارها واكتفيت بالنظر لها مبتسمة، فما كان منها إلا أن استهلت الحديث بلدغة لسانها المميزة لكلماتها : ما رأيكِ في يوم أمس؟!

هززت كتفاي بلا مبالاة وأجبتها: كان عاديًا .

وبدون تفكير علقت : وما رأيك بماهر؟

دققت النظر بملامحها عليّ أفهم ما ترمي إليه فوجدتها هادئة مبتسمه ابتسامة تحمل مشاعر غريبة عجزت أنا عن فهمها فأجبتها وأنا أعقد ما بين حاجبيّ: وكيف لي أن أبدي رأيي فيه من يوم واحد إذ لست أعرفه؟

ضحكت ضحكة كان مغزاها عدم التصديق: حسنًا إذا أخبريني ما هي انطباعاتك الأولى نحوه .

نظرت لها وأنا أضيق عيناني فسألتها: ما بالك يا امرأة لا تعجبني أسئلتك البتة .!

لوت طرف شفتيها وبنظرة ماكرة أجابت: ولكن أنا تعجبني نظرات الفتى إليكِ .

لم أجبها إذ أدهشني ما تقول، فاستدركت قائلة: لمَ تنظرين إليّ هكذا؟، فأنا أعلم أن إعجابكما متبادل.

وكزتني في كتفي وهي تكمل: يا بنت لقد رأيتكِ تختلسين النظر إليه كرة بعد أخرى .

شعرت بالدم ينفجر بوجنتاي واستبد بي خجل لا حد له إذ لم أكن أتوقع أن أحدا ما سيلاحظ مراقبتي لماهر، وهنا بلغ مني الخجل أقصاه حين ضحكت أم سمير ملء فمها قبل أن تمسك ذقني وتقول بينما تنظر لأم عيني: لا تخجلي يا صغيرتي سرك طي الكتمان وإني

لأشعر بالسعادة لما أراه من نبتة إعجاب ستنبت داخل قلبك وللحب ستكبر وتنمو ذات يوم .

قاطعتها بعناد لا أدري سببه قائلة وأنا أزيل يدها التي تمسك بذقني : لا يوجد أيما شيء مما تتوهمينه، ربما كنت أنظر إليه شاردة الذهن فحسب لا أكثر ولا أقل وأنتِ قد فسرته كذلك .

ظلت محتفظة بابتسامتها الجزلة وببساطة أجابت: هذا وارد .

جاء جوابها - الذي تقوله بدون تصديق- قصيرا فأنهى الحديث الذي أردت إنهاءه ظاهريًا إلا أني في حقيقة الأمر وددت لو أسألها أحقًا رأت في نظراته إليّ شيئًا من الإعجاب؟ ولكن الأوان قد فات وبحماقتي لم أستطع التحدث معها حول الأمر، بددت صمتي بطلبها مني إنهاء إرتداء ملابسي واللحاق بها كي أتناول طعام الإفطار مع خالتي .

ومر اليوم وماهر مستحوذ على جل تفكيري، وفكرت كثيرا في ذلك الشيء الذي أراد أن يصحبني ليريني إياه، وبلغ مني الفضول مبلغه حول ماهيته وانتظرت قدومه لزيارتنا في بيت خالتي ولكن انتظاري قد طال إذ انصرم النهارد دون أن يأتي، فحل اليأس مني مبلغه وفكرت أكثر من مرة أن أذهب أنا إليه تاركة وراء ظهري ما أخبرته أمس عن عدم رغبتي بمعرفة شيء، حتى لأني فكرت في سبب لزيارتهم آخر غير هذا ولكني عقدت العزم ألا أجعله صاحب اليد العليا فظللت مكاني آخر الأمر وحل بقلبي حزن وكآبة لم أفهم أكان سببها هو الفضول أم أنني انتظرت رؤيته !

"ما بالك؟ " !

سألتني خالتي وهي تجلس جواري حاملة صحنا من اللب والفول السوداني تلتهم منه بنهم حقيقي، ومدت بالطبق نحوي عازمة ولكني أبيت فلم يكن لديّ شهية، ثم أعادت سؤالها عليّ كرة أخرى: " لمَ هذا الوجوم لم أرك هكذا من قبل؟ "

أجبتها بضيق: أشعر بالملل .

فأجابتني من بين فصوص اللب المحتشدة بفمها: أظن لأنكِ لم تذهبي للبحر .

هنا جاءت أم سمير بعد أن أنهت عملها بالمطبخ وانضمت لخالتي في تناول اللب وقالت بنبرة ذات مغزى وهي تجلس: لا أظن أن البحر هو السبب .

تجاهلت تلميحاتها وأخذت أفكر لمَ لا أذهب لأسري عن نفسي قليلا وإن لم يكن هو السبب الفعلي، وفكرت أنني انشغلت طوال اليوم في انتظار ماهر ولم أفكر بهذا من قبل، دب بي الحماس ونهضت: معكِ حق خالتي سوف أذهب .

أنهيت جملتي وزيلتها بقبضة من اللب كادت تجعل خالتي تنقض عليّ لكثرة ما أخذته، ولكني هرولت مسرعة من أمامها، وما إن خرجت من باب البيت حتى رأيته أمامي يبتسم لي ابتسامة واسعة زادت من وسامته أضعافا فجعلت قلبي يتحرك من مكانه، حاولت السيطرة على

مشاعري وعدم إظهار أيٍ مما يجول بخاطري، قال بصوته الرخيم المميز: إلى أين تذهبين؟

قلت بابتسامة حاولت جعلها عادية: إلى البحر كي أستنشق الهواء قليلًا

علق قائلًا: إذًا ما رأيكِ باصطحابكِ إياي .

قلت بصوت أخفيت عنه نبرة الفرح: وليكن هذا .

حذوت حذوه واستشعرت وكأن جسده يصدر إشعاعًا براقًا لا يراه أو يحسه أحد غيري، تخلل هذا الشعاع بين ذرات جسدي ليستقر داخل لب قلبي مضيفًا له كثيرًا من الحبور، جاءني صوته عذبًا جميلًا يسألني: كأنكِ منشغلة البال؟

أجبته بسرعة: كلا على الإطلاق.

ثم تبعت إجابتي بسؤاله: هل كنت قادمًا لزيارة خالتي؟

ليجيب بجرؤة: بل أتيت من أجلك .

إلتفتت إليه فكان ينظر لأم عيني نظرة لامعة وحين لم يجد تعقيبًا مني أردف: هل سمعتي من قبل عن أحد يرى شخصًا آخر في منامه ولم يسبق له رؤيته من قبل أبدا ثم يتبين له فيما بعد أنه حقيقة مؤكدة !

وكأنما أنزل عليّ بكلماته نيران صاعقة، وانقطعت الأصوات فجأة وكأني قد صممت فما كان إلا أن مادت الأرض من تحتي والسماوات

من فوقي وسرعان ما اختل توازني لينجدني هو بلهفة وبنظرة حملت كل معاني القلق سألني بارتياب: ما بك؟ هل تشكين من شيء؟

أجبت وأنا أتفرس ملامحه أبحث فيها عن شيء من الجن -ذاك أنني قد استنتجت أنه لابد وأن يكون جنيًا يتربص لي بأحلامي قبل أن يظهر أمامي فيقلب موازين أموري-ولكني لم أجد سوى مشاعر إنسانية صادقة قلقة تحمل من الخوف مايجعلها أسمى من أيما شيء أخر خطر ببالي ولكنها أيضًا زادت من توتري وحيرتي، وبصوت حاولت استرداده أجبت وأنا أستجمع قواي لأفرد جسدي: لا أبدًا دوار خفيف .

بقلق سألني: أمتاكدة أنتِ؟

اكتفيت بهزة من رأسي وانتظرت ما وراء حديثه، فأكمل: هل تحتاجين للراحة يا فريدة؟ هل أعيدك للبيت؟

أجبت وقد أصبحت حقًا في حال أفضل: بل إني بخير أكمل ماكنت تقوله .

أشرقت ملامح وجهه وكأنما قد نسي الحديث الذي بدأه فاستطرد قائلًا: لا بد وأنكِ قد سمعتي شيئًا عن ذلك، وهو ما حدث معي .

انتبهت حواسي أكثر واستثيرت، لأسمعه يجيب غير ما توقعت: ولكن على نحو مشابه .

سألته بترقب: كيف هذا؟

-لقد سبق ورأيتكِ يا فريده قبل أن ألقاكِ .

كف عن الحديث وكأنما يعمد إلى إثارة فضولي، فحثته على مواصلة حديثه ليكمل: لقد سبق ورسمت ملامحكِ هذه بيدي، عيناكِ الصافيتان وحاجبيكِ الرفيعان، وجبينك الناعم وفمك المتناغم، أردت رسم شخصية ذات حياة، شخصية جميلة لعين الناظر تحمل روحًا حلوة عذبة الملامح لينة التقاطيع،، تماما كما وجدتك حين رأيتك أول مرة .

كان يتحدث بلهفة ناظرًا إليّ وكأنما ينظر إلى أجمل شيء في الوجود، مست نبرته الحانية شغاف قلبي وأسرتني نظرته، بحثت عن صوتي جاهدة وسألته بغباء: أتقصد أنك رسمتني؟

أجاب: نعم

سألته: قبل أن تراني؟

نعم

-نفس شكلي هذا؟

هو نفسه

-هل أنت رسام؟

إني كذلك.

رأيت في ملامحه شيئًا من الخوف الممزوج بالترقب، وكأنه ينتظر ردة فعلي ويتساءل إن كنت سأصدق حديثه أم لا، والواقع أني قبل هذا ببضعة أيام لكنت أظنه كاذبا مخادعا لا أكثر ولا أقل، ولكن في حال

أني نفسي قد سبق ورأيته في حلم ما، فهناك شيء قوي يصرخ داخلي بتصديقه، قلت له: أود رؤية لوحتي تلك .

***

صحبني إلى منزلهم إذ أخبرني أن كل لوحاته المفضلة يحتفظ بها في حجرة تحت الأرض، ولجنا إليها من باب جانبي داخل الحديقة وهبطنا درجات السلم في تؤدة وما إن أنار الضوء حتى ظهرت غرفة تكسو جدرانها الكثير من اللوحات، انسل هو إلى غرفة ملحقة بدت من موضعي أصغر حجما من هذه، حولت نظري عنه ورحت أتامل اللوحات المعلقة، لقد كانت بارعة الجمال، دقيقة التفاصيل، متناغمة الألوان، مرسومة بيد فنان حقيقي، حتى لتكاد تظن أن الروح تدب داخلها، علقت أنظاري على لوحة لشاطئ الإسكندرية كانت أمواج البحر وكأنها تود الخروج من اللوحة لتكمل مسارها الطبيعي، والسماء فوقه صافية زرقاء اللون تريح نظرك وكأنما تنظر لسماء حقيقة، قطع تأملي حين جاء من خلفي قائلًا :

"ها هي اللوحة "

التفتت إليه بسرعة أبحث عن اللوحة فكان يحملها وظهرها لي وعندما نظرت إليه متسائلة أن يريني إياها قام بلف وجهها نحوي وهو ينظر إليّ بترقب ليدرس رد فعلي، وما إن وقع بصري على رسمتي حتى وجدت فتاة تشبهني كل الشبه لا بل إنها هي أنا، اقتربت منه كي أدقق النظر أكثر، فوجدت ملامحي نفسها لم تتغير البتة، عيناي البنيتان نفسهما جفناي الصغيران رُسما بحرفية كحرفية رسم رموشي

القصيرة ، أنفي نفسه بعوجة العظمة الأمامية ويقبع تحتها فمي الصغير وردي اللون، وقد افتر عن ابتسامة جزلة شعرت بها تخرج من الأعماق حتى لأني تمنيت لو أقدر على الضحك هكذا الآن، ورسُم جسدي النحيل وكأنما كنت أقف أمام الرسام ليستنسخني، كنت أنا هي تلك التي بداخل اللوحة كل شيء فيها حقيقة ماعدا ذلك الفستان الزهري الذي كان يزين جسدي.

وكأنما قد أطلت النظر للوحة فتململ ماهر يسألني بنظرة حملت قلقا وتوترا بالغين: ما رأيك؟

لم أستطع أن أتبين ماهية سؤاله فسألته: رأيي في ماذا؟ اللوحة؟

وكأنما أربكته أكثر فأجاب: اللوحة وما أخبرتكِ إياه .

كنت أشعر بارتباك فاق ارتباكه وكدت أجيبه أني تائهة لا أدري شيئًا حتى وقعت أنظاري على لوحة خلفه أثارت في نفسي مالم تثره لوحته لي، فقد كانت صورة أخيه حسن نفسها التي جاءت أمام أنظاري من قبل يقف خلف أسوار السجن فاضطرب عقلي واهتز كياني فسارع ماهر لسؤالي بقلق عارم: ما بالك يا فريدة لقد شحب وجهك وانسحب الدم من شفتيك، ماذا هناك؟

أشرت للوحة خلفه لأجد يدي ترتعش فسحبتها لجواري مرة أخرى وأنا أسأله بصوت بدى لي صوت مختلف تمامًا عن صوتي: هذه اللوحة !

التفت ينظر إليها ثم التفت لي مرة أخرى بتعجب ممزوج بالقلق: ما بها؟

قلت وأنا أبحث عن صوتي : إنها هي نفسها .

لم يعرني أي اهتمام واقترب مني بحياء يسند ذراعي قائلًا بخوف مشوب بالقلق: فريدة أنتِ لستِ بخير يجب أن أعيدك للمنزل الآن فتلقين قسطًا من الراحة .

وأخيرًا تحركت عيناي من فوق اللوحة لتقع على وجهه المضطرب وقلت : ماذا يحدث؟ من أنت وكيف سبق وأتت هذه الصورة إلى عقلي؟ ما هذا الذي يحدث معي؟

أنهيت أسئلتي بصوت باكٍ ولكنني أمسكت عن البكاء فشد قبضته فوق ذراعي وحثني على السير معه وكأنما لم أوجه له أية أسئلة على الإطلاق، وضعني داخل سيارة كانت تقف أمام حديقة منزلهم وتوجه إلي بالحديث أخيرا وهو يأخذ مقعد السائق : فريدة أنا لا أدري مابك ولكنكِ في حالة تشبه الهذيان وإني لجد قلق لما أراه على محياك من تعب، ستذهبين الآن وتخلدين للنوم ونكمل حديثنا غدًا حول كل ما تودين معرفته ولكن الآن يجب أن ترتاحي فقط .

لم أنظر إليه أثناء حديثه فقد كانت نظراتي هائمة مضطربة تائهة كتوهان عقلي، بيد أنني لم أتُه عن القلق الجليّ الذي استبد به وكنت أعرف أنه يشعر بشيء من تأنيب الضمير إذ ظن أنه السبب فيما قد حل بي، ولابد أنه يفوقني استغرابا إذ أن رد فعلي بالنسبة له لابد وأنها مغالية .

أوصلني للمنزل ثم أخذتني خالتي إلى الفراش وضمتني إلى صدرها متمتة بكلمات لم أفهم ماهيتها بل إنني في الأصل صممت أذني عنها إذ كان عقلي منشغلا بشيء واحد فقط وهو كيف لي أن أفهم ماحدث، لجأت أخيرا للنوم بعد أن تلفت أعصابي فكان صدر خالتي لي مأوى هربت إليه من وحش التفكير.

.....

****

تنسم الصباح وأشرق النهار بنور شمسه، بقيت بفراشي لا أود الحراك، توالت على غرفتي كل من خالتي وأم سمير يسترقان النظر إليّ بين الفينة والأخرى متأملتان أن تجداني على حال أحسن من سابقتها، إلا أن الإعياء قد أخذ مني مبلغه، ظللت على هذه الحالة لا أحرك ساكنًا وتزداد بي الحمى، وقد ظننتها حمى التفكير ولا شيء آخر، حاولت جاهدة عدم تقصي الأمور داخل عقلي ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل، فإن كان من الطبيعي رؤية بشر ذوي ملامح معروفة لعقلي، وإن كان أيضًا من الطبيعي الحلم بشخص قبل أن أراه حقيقة أمامي، وإذا أخذنا في عين الاعتبار أن ومضة لصورة شخص ما تتجسد أمام عيني عند رؤيته -لتخبرني حقيقة مرض لديه قبل أن أعرفه- قد يحدث في بعض الأحيان، فأبدا أن يكون من الطبيعي ومحض صدفة أن تكون هذه الصورة لوحة لفنان قد سبق ورسمها في مكان آخر غير ذلك الذي أقبع فيه، إذًا كيف أتت على خاطري؟ !

كيف تحدث كل هذه الأمور الغريبة، أوقفت أم سمير سيل التساؤلات التي أخذت تتدفق داخل عقلي حين هزتني بهزة حانية بعد أن جلست جواري على الفراش دون أن أشعر بولوجها داخل الغرفة، حدجتني بنظرة قلقة خائفة وبصوت مرتعد وجهت لي الحديث : يا إلهي يا فريدة إنكِ لجد شاحبة اللون ممتقعة الوجه .

تنهدت ثم أكملت حديثها وقد كانت لا تنتظر مني جوابًا: لا يجدي هذا النظام، يجب أن تأكلي شيئًا فقد أتى الظهر ولم يدخل جوفك فتات طعام .

وهمت بالخروج إلا أن خالتي بادرتها حين دخلت إلى الغرفة تحمل صينية تزينها أطباق الطعام الذي لم تثر رائحته في شهيتي أي شيء، وقالت لأم سمير أنه لا داعي لتعبها فقد سبقتها، وهنا أصبحت محاصرة من الاثنين وتيقنت أنه ما من محاولة مني ستحول دون أن أتناول شيئًا من الطعام، تحاملت على نفسي واعتدلت في جلستي أضع اللقيمات داخل فمي دونما تذوق، وأخذتا السيدتين الجالستين فوق رأسي بقلوب خائفة مضطربة تتحدثان عن أيما شيء دون أن تسألاني عن سبب تعبي المفاجئ، وهذا مما أشاع الحبور بقلبي بيد أن أم سمير لم تترك لي حق هذا الشعور إذ صاحت فجأة: فريدة لقد أتى بكِ ماهر أمس، أيعقل أنه هو سبب حالتك تلك؟ أخبريني هل ألحق بك أي ضرر؟

كانت تنظر لي بهلع حقيقي انتقل إلى خالتي التي سألتني بدورها إن كان هذا صحيحا أم لا، صمتت حينا من الوقت أفكر، ترى هل هو

السبب حقًا؟! وإن كان لا شأن له بما يحدث معي ، أم أن له دور ما، نفضت رأسي عن هذا التفكير، وكأنما كنت أود أن أجد أحدًا أضع عليه اللوم وأفر هاربة، فنظرت لهما وبابتسامة شعرتها باهتة: لا بالطبع لا يوجد شيء كهذا ، بل حتى هو من أحضرني إلى هنا فكيف يكون هو المتسبب بضرري؟ !

حاولت أن أبدو مرحة فأطلقت ضحكة خرجت بلهاء إلى الحد الذي جعلني أشعر بالندم بعدها، وجعلتهما ينظران إلي باستغراب لحالي، وبينما نحن هكذا حتى سمعنا صوت طرقات على باب المنزل فذهبت أم سمير لتستعلم من الطارق وبعد مدة من الوقت عادت تخبرنا أنه ماهر ثم اقتربت مني وسألتني إن كنت أستطيع الخروج لمقابلته إذ كان يريد الاطمئنان على صحتي، فأجابتها خالتي بالنيابه عني : لا أخبريه أن يأتي بالغد فهي مازالت متعبة.

ولكني أوقفتها بقولي : لا لا إني أود رؤيته .

ارتديت ما تناولته من ثياب على عجلة وخرجت لملاقاته فوجدته يجلس بغرفة الجلوس باستحياء فبدا جسده مشدودا يدل على أنه رجل رياضي ذو وجه حسن وسرعان ما تبينت أن شيئًا ما تسلل لقلبي عند رؤيته، شيء يشبه الفرح ولكنه ليس بذلك، شعور معين لا أدري ما كنهه، وبقدر ما كان شعورًا مختلفا فتح لقلبي طريقا للبِشر إلا أنه حملني على الخوف مما هو آت، اقتربت منه فقام يحييني ما إن رآني أدخل الغرفة، كان يدقق النظر إلى ملامحي وكأنما كان يبحث عن

شيء ما، فأفتر فمه عن ابتسامة عذبة وبصوته العذب قال: تبدين في حال أحسن من أمس .

ابتسمت له ثم تقدمت وجلست إلى المقعد المجاور له فجلس مكانه بدوره، نظر إلي دون أيما تعبير على وجهه فبدا وكأنه لوحة سريالية لرجل قدر له أن يُمثل معنى الجمال، نظرت لعينه أبحث عن الخطان المرتسمان جوارهما فلم أجدهما إذ لم يكن يبتسم، فانتابتني وخزة وخفق قلبي بخوف واضطراب إذ حينها فقد اكتشفت أني كنت في شوق لرؤيته .

**

قال بنبرة تحمل ندمًا فكانت جديدة على مسامعي: أنا آسف حقًا فيبدو أنني قد وضعتكِ أمام أمر فتح لكِ أبوابا قديمة لا تحبينها .

كان محقا ولكني لم أكن بساخطة منه، سألته بلهجة بدت آلية شيئًا ما: لمَ رسمت حسن بهذه الصورة؟

نظر بشيء من التعجب وكأنما لم يكن ليتوقع هذا السؤال فأجاب: أعلم أنكِ تدركين حقيقة المرض المتربص بأخي فقد أخبرني أنه قال لكِ.

سألته بجمود لم أفهم سببه: ما علاقه هذا برسمك إياه على هذه الصورة؟

تنحنح قليلًا وكأنما وضعته في موقف صعب : لا يوجد علاقة من وجهة نظري .

نظرت له بتعجب ممزوج بالاستنكار فاردف قائلًا: لوحاتي ماهي إلا إنعكاس لأفكاري، وحسن حين يسرق شيئا ما متعلق بأحد تنطلق هذه الصورة داخل عقلي، وكي أتخلص منها حررتها فوق الورق وزينتها بالألوان، هذا كل ما في الأمر .

-وهل شاهد حسن هذه الصورة؟

-لا لا بالطبع لم يفعل، فلا أحد يذهب إلى غرفتي هذه إذ أن لوحاتي هي آخر اهتماماتهم .

بدت مسحة خفيفة من الحزن فوق محياه إلا أنه احتفظ بوسامته، فاستكملت استجوابي الذي فطنت إلى كونه جامدًا من ناحيتي خوفًا مني أن يتبين ما يعتمل داخل صدري : لمَ تقول هذا؟

بشّ وجهه عن ابتسامة عذبة وقال: إنها لحكاية طويلة سأخبركِ بها فيما بعد .

سألته مرة أخرى: ألم تفكروا في إخضاع حسن للعلاج؟!

أجاب بسرعة: لا أحد يعلم من أهل البيت غيري.

تعجبت من قوله ودهشت بشدة فخرج سؤالي حائرًا: كيف هذا؟ ولا حتى جميلة تعرف؟

أجاب باقتضاب: أنا فقط الذي أعرف من أهل البيت، ولو عرف والدي شيئًا كهذا لقتله بدلًا من أن يعالجه .

أجبت بنفور : ياله من رجل قاس .

حملق ماهر بوجهي وكأنما قد وصفته هو بالقسوة لا والده، ولكن في نهاية الأمر هو والده واستنتجت أنه لم يحب وصفي إياه بهذا القول، ولكن سرعان ما تبدلت ملامحه وحل البشر محل الوجوم واتسعت ابتسامته وهو يسألني بجزل: ما رأيك أن أدعوك على وجبة سمك غدًا .

أدهشني تحمسه الشديد وقبل أن أجيب أردف بمرح: حسنًا لقد قررت، فلتستعدي غدًا .

أجبت بعصبية: ألم نكن نتحدث عن حسن؟

وقف دون سابق إنذار وابتسامته تتسع أكثر فيبرز خطا عينيه ليجيب: سنكمل حديثنا غدًا وسأجيب عن كل أسئلتك مقابل أن تقبلي دعوتي، ما رأيك؟

وقفت أقابله ودار بي دوار خفيف سرعان ما سيطرت عليه إثر سرعتي المفاجئة أثناء وقوفي، وسألته بعناد: ولمَ لا نكمل حديثنا الآن؟

مال نحوي فبدا قريبًا مني ليختلج قلبي وتعصف رائحته الهادئة بروحي : ولكنكِ متعبة الآن وقد أضحى الإرهاق جليًا على ملامحك، هيا قولي اتفقنا كي أخبرك بكل شيء .

وكأنما كنت مسلوبة الإرادة أجبت بصوت واهن: اتفقنا.

(الفصل السادس)

وقفت أتزين أمام المرآة بمشاعر كثيرة متخبطة، إذ كنت قلقة مما يحدث معي بل و قلقة من ماهر نفسه وعلى النقيض تمامًا يوجد مكان بقلبي متلهف لرؤيته، والتملي من جمال ابتسامته، أخذت أضع القليل من مساحيق التجميل كي تضفي لوجهي بعضًا من الحيوية، نظرت لصورتي بالمرآة ولم أكن أتوقع يومًا أني سأفكر بمقولة أمي أن ملابسي أشبه بملابس الرجال، حز قلبي وتمنيت لو كنت أمتلك فستانا زهري اللون مثل ذلك الذي رسمني به ماهر وكأنما أود أن أكون جميلة بعينيه مثلما أراد أن يرسمني في خيالاته، طرق الباب ودخلت أم سمير قبل أن تنتظر إذني للدخول وقالت بابتسامة واسعة امتلأ بها وجهها فجاءت لدغتها واضحة أكثر: إن ماهر ينتظرك بالأسفل .

نظرت نظرة أخيرة لوجهي بالمرآة ولشعري الذي فردته لأول مرة إذ أفضل كونه منعقدًا خلف أذني، ثم أسرعت بالخروج وما إن رآني ماهر حتى انتفض مرحبًا بابتسامته التي أسرت قلبي وما زالت تؤثر فيه كلما رأيته، جاء صوته المخملي ليهز قلبي قائلًا: زاد جمالك حين تركت شعرك حرًا هكذا.

إرتجف جسدي ورفعت خصلات شعري خلف أذني وكأنما أحاول إخفاء ارتباكي من نظرته المعجبة تلك وقلت بصوت خشيت أن يكن مهزوزًا: إلى أين سنذهب؟!

جذبني من يدي قائلًا بحماس: سنتناول الغداء في أجمل مكان بالإسكندرية بأكملها.

قلت وأنا أعدو خلفه كي ألحق خطواته: ما كل هذا الحماس لقد حمستني وأنا لست جائعة.

نظر إلي بمكر: حينما تصلك رائحة الطعام ستتضورين جوعًا .

وصلنا المطعم الذي وصفه بأنه أفضل مطاعم الإسكندرية وأجملها، وتيقنت من صدق حديثه حين وقع بصري عليه وحين لفحتني رائحة البحر مرحبة، دخلنا سويًا وأنا أتطلع حولي مبهورة فقد كان غاية في الفخامة، سألني بابتسامة منتصرة: أعجبتِ بالمكان أليس كذلك؟

قلت وأنا أنظر ناحية البحر الذي كان واضحًا من داخل المطعم المكون من زجاج: أجمل مافيه أنه يطل على البحر .

ضحك وهو يزيح لي الكرسي كي أجلس عليه: كنت على يقين أنك كثيرة الزيارات للبحر ولكن لا تعلمين شيئًا عن المطاعم حوله .

نظرت له باستغراب وهو يأخذ مقعده أمامي: ولمَ كل هذا اليقين؟

أجاب وهو يقلب قائمة الطعام بين يديه بعدم اهتمام: ماذا هل ظني خاطئ؟ هل سبق وأن تناولتِ الطعام هنا أو بأحد المطاعم بالإسكندرية بأكملها؟

أجبت بصوت منخفض وكأنما قد خسرت بنقاش لم يبدأ بعد: لا فأنا أحب تناول الطعام مع خالتي .

أكمل بكل ثقة: وأنتِ هنا لا صديق لكِ سوا البحر، فلا عجب إن كنتِ لا تشاركينه الطعام مثلا وتذهبان سويًا إلى مطعم ما .

طفرت بسمة على شفتي إثر طريقته في الحديث إذ حاول تقليد مذيع الأخبار، جاء أحد الندل العاملين بالمطعم ورحب بماهر أشد ترحاب فيبدو أنه دائم الزيارة لهذا المطعم، رن صوت نادر بأذني وهو يقول له : أريد وجبة سمك مثل تلك التي تناولتها آخر مرة ولكن لفردين من فضلك .

نظرت إليه بلوم وانتظرت انصراف النادل بعد أن أخذ كل ما يريد من معلومات ثم قلت بعتاب: ألا تظن أنه من الواجب أن تأخذ رأي تلك التي تجلس معك؟!

ابتسم برقة خذلتني إذ كنت حادة بحديثي، وبهدوء قال: لمَ كل هذه العصبية، صدقيني لقد طلبت لكِ أفضل طعام بالمطعم وإن لم يعجبك فلكِ الحق بفعل ماتشائين حتى وإن طلبتِ عدم مقابلتي ثانية.

قلت بعناد: حسنًا موافقة.

اتسعت ابتسامته وأردف: لم نكمل بعد.

-نكمل ماذا؟!

*الاتفاق، فأنتِ إن أعجبك الطعام سيتوجب عليكِ أن تأتي معي.

-إلي أين؟ !

لم يجب عن سؤال إذ أتى النادل بالطعام وبدأ برصه أمامنا، جاءت رائحته منبهة لعقلي فقد كانت لذيذة إلى حد أن استيقظت معدتي متسائلة متى ستفوز بهذا الطعام، كان سمكا من كافة الأنواع متعدد الألوان وضع بطريقة فنية وكأن من أعد الأطباق فنانا وليس طباخًا، سألني ماهر: هل أساعدك؟ !

قلت له وأنا أمد يدي إلى قطعة جمبري كانت تلوح لي طالبة مني أن ألتهمها: لا عليك سوف أتدبر أمري.

بدأنا سويًا في تناول السمك وأخذنا في التهامه بنهم وكأنما نتناول قطعة من السماء وليس سمكا عاديًا، قلت له وأنا أستند على الكرسي بعد أن أنهينا الطعام أمامنا: كنت أظنه كثيرًا .

ضحك بخدود متوردة إثر تناول الطعام : هكذا كنت أظن أيضًا .

قمت بتثاقل بعد أن سألته على وجهة الحمام كي أغسل يداي، وحين رجعت وجدته ينظر إلي بعينين مبتسمتين وخدود متوردة زادت من وسامته مما جعلني أبتسم له تلقائيًا ، قال بينما أرتمي على الكرسي: أعجبكِ الطعام لا داعي للتساؤل أليس كذلك؟

قلت وأنا أضع يدي على معدتي المنتفخة التي تعاني مع محاولات لهضم ما امتلأت به: كان السمك لذيذًا حقًا أحسنت الاختيار.

هب واقفًا فأفزعني قائلًا: هيا إذن لنذهب .

تذكرت الاتفاق الذي عقدناه قبل الطعام فوقفت أسأله : إلي أين لم تخبرني؟

قال وقد أصبح قريبًا مني إثر وقوفي الغير مدروس :سيعجبكِ المكان لا تقلقي

أربكني اقترابه مني إلى هذا الحد فجن قلبي وكاد يضغط قفصي الصدري إلى الخارج، حاولت تهدئته باتخاذ أنفاسي فسألني: هل أنتِ جاهزة لنذهب؟ !

أومأت برأسي ولم أنطق خوفًا أن يفتضح أمري من صوتي الذي خلته سيخرج مهزوزًا، قادني إلى الخارج وطلب أن نذهب سيرًا على الأقدام كي نستمتع بهواء البحر المنعش، سرت جواره يغلفنا صمت ظاهر مخالف لضجيج قلبي الباطن، كنت أتساءل لم هذا الاضطراب الذي يغلفني حين أكون معه، تذكرت كلام أم سمير وأخذت أفكر به، هل حقًا أنا معجبة بماهر؟ ولكن متى حدث؟ وهل هو معجب بي كما كانت تحاول التلميح؟

لم أكمل تساؤلاتي الداخلية إذ طلب مني الدخول حيث وصلنا للمكان المنشود، كان محل لبيع المثلجات ذو ألوان مبهجة أضافت البهجة لقلبي الحائر، سألني هل نجلس ونتناوله هنا أم نتناوله سيرًا، طفرت لوحة حسن إلى ذهني وتذكرت لمَ أتيت معه من الأساس فأجبت بنبرة ثابتة: بل نجلس هنا

اتخذت مكاني بينما ذهب هو لإحضار المثلجات، جاء باثنين بطعم التوت، ابتسمت وأنا أتناولها منه قائلة: مصادفة جميلة فأنا أحب التوت.

تناولت أول ملعقة وهو يقول : أعرف هذا

نظرت إليه: كيف تعرف؟!

شعرت وكأنما أربكه سؤالي قليلًا ولكنه أجاب بابتسامته المعهودة: أخبرني حدسي .

قال جملته وهو ينظر إلي كأنما يبحث عن شئ ما بوجهي، نظرة غريبة لم أفهمها ولكنها بشكل أو بآخر جعلتني أشعر بالحرج إذ كان نظره مصوبًا فوق وجهي، سألته وأنا أحاول إخفاء ما يعتمل داخل صدري: هل تبحث عن اختلاف ما بيني وبين لوحتك؟!

أجاب بثبات وما زالت نظرته مثبتة فوق وجهي خصيصا عيناي: أنتِ هي تماما لا يوجد أي اختلاف .

هنا وضعت المثلجات أمامي وقد عزمت على محاولة فهم شيء مما يحدث معي، أخذت نفسًا عميقًا محاولة تهدئة نبضات قلبي الحائر وسألته: أخبرني عن حسن، ولمَ يعامله والدك بقسوة، وأيضًا أخبرني لمَ أقدمت على رسمه بهذه الصورة ألا تخشى أن يتسلل الحزن لقلبه إذا رآها؟ !

أطلق ضحكة خفيفة بينما ظهر الخطين جوار عينيه لتضفي له مزيدًا من الجمال: حسنًا إهدئي لا داعي لكل هذه العجلة في الحديث أمامنا متسع من الوقت .

أراح ظهره على الكرسي ونظر لأم عيني ليبدأ حديثه بوجه سيطرت عليه بعضًا من الجدية مشوبة بشيء من الحزن :

من أين أبدأ لكِ يا فريدة؟ حقًا لا أدري فأنا أتخبط بمشاعري كطفل لا يقدر على مواجهة الحياة، أخي حسن ووالدي هما سبب حزني الأكبر في هذه الحياة، جاء حسن كأول ابن فتلقاه أبي وكأنما هو عجينة يجب تشكيلها كي يصبح نسخة مصغرة منه، لم يعرف الحنان لقلبه طريقًا يومًا، فكان يعامله بأقسى ما قد يعامل المرء ابنه، معذور فهو يخشى على أعماله وممتلكاته أن تذهب لغريب، فبدون وعي أو إدراك قام بإلغاء شخصيته، إلى أن جئت أنا بفارق عمر كبير بيني وبين حسن بعد أن ظن والداي أنهما لن يرزقا بابن آخر، وعلى غير ما قد عومل أخي كنت أنا الابن المدلل، متلقي الجزء الأكبر من حنان أبي وإن لم يخلو من بعض القسوة، لاحظ حسن فرق المعاملة منذ طفولته فكانت لقلبه مزيدًا من الطعنات، لا أنكر أنه أكثر قربًا لي من أبي على غير المتوقع، ولكنه من أخبرني بمرضه وأعلم أني بشكل أو بآخر جزء من مرضه هذا .

تنهد بعمق وآثار دموع تلمع بعينيه، لمس حزنه قلبي وودت لو أدنو منه كي أربت على كتفه، ولكني اكتفيت بالحديث فقلت: هذا خطأ فوالدك هو السبب الحقيقي لمرضه .

أشاح برأسه بعيدًا وكأنما يريد إخفاء دموعه جاءني صوته منكسرًا على غير العادة مما أدمى قلبي: حسن يحاول سرقة الاهتمام، يحاول البحث عن شعور وكأنه شخص مهم، فيسرق من الآخرين أشياء عزيزة لديهم، أخبرني ذات مرة أنه حين يفعل هذا يشعر أنه يمتلك شيئًا مهما وإن لم يكن ملكه .

تنهدت بحرقة وسألته: وهل سيظل هكذا لن يعالجه أحد؟

هنا نظر إلي قائلًا: حاولت كثيرًا إقناعه بشتى الطرق ولكنه يخشى أبي من ناحية ويخشى الناس من ناحية أخرى .

شعرت بالحيرة تملكت قلبي أكثر من ذي قبل وقلت كما لو أنني أحادث نفسي: لابد وأن هناك حلًا .

أجابني: نعم يوجد ولكن حين يكسر حسن حاجز الخوف من أبي .

اكتفيت بالصمت وأنا أقلب حديثه برأسي، فباغتني بسؤال وهو يضع يديه على الطاولة أمامه : أظن أني الآن قادر على سؤالك ما حل بك حين رأيتِ صورته ؟!

(الفصل السابع)

اكتفيت بالصمت وأنا أقلب حديثه برأسي، فباغتني بسؤال وهو يضع يديه على الطاولة أمامه : أظن أني الآن قادر على سؤالك ماحل بك حين رأيتِ صورته ؟!

أربكني سؤاله، ابتلعت ريقي وأنا أفكر بما سأقوله له، فلا بد أنه لن يصدق شيئا مما حدث معي، بل إني من الأساس مازلت متخبطة داخل أفكاري، لا أعلم شيئًا ولا أفهم ما الذي يحدث، قاطع صوته تفكيري: ماب الك يا فريدة إلى أين ذهبتِ؟!

تنهدت بضيق وأنا أترك علبة المثلجات أمامي شبه فارغة، وأجبته بصوت بدا مختنقًا: أود العودة إلى المنزل.

تغيرت ملامح وجهه فبدا متفاجئًا، وإن كان هناك تعبيرًا آخر من تعابيره التي لا أقدر على قراءتها، ولكنه تجاهل ذلك الذي اعتمر بصدره ورسم بسمة فوق شفتيه قائلًا: أنتِ محقة فقد تأخر الوقت ولكن.

توقف عن الحديث كي يضع المال فوق الطاولة قبل أن نخرج، واصل حديثه بينما نحن عائدان وأنا صامتة بعد تلك اللحظات التي بدت لي من حلم بعيد جدا أكاد بصعوبة تذكر ملامحها، إلا أن قلبي كان يترنم بنغمة صوته وهو يتحدث: غدًا عيد ميلادي وأنتِ أول المدعوين.

نظرت إليه فوجدت وجهه يشرق بابتسامة عذبة نالت من قلبي، قلت له: هل تحتفل بعيد ميلادك؟ طننت هذا للفتيات فقط.

اتسعت ابتسامته وأجاب بمكر: حسنًا لا أخفي عنكِ ولكني سأحتفل به هذه السنة خصيصًا لأجلك.

رددت متفاجئة: لأجلي أنا؟!

اكتفى بهز رأسه مع بسمة خبيثة ارتسمت فوق شفتيه، فأكملت تساؤلي: ولكن كيف؟

وضع يديه بجيبه وبدا لو كان رجلًا هامًا ذو نفوذ ووسامة بالغيين، وبصوته الجميل أجاب: هذه أول سنة نتقابل وأظنها حجة لا تفوت كي نرى بعضنا غدا.

أنهى كلامه وهو يلتفت إليّ بنظرة جعلت قلبي يلتهي عن نبضه لثوان، لا لا بد وأنها نظرة عابرة وليست كما بدا لي، وكأنما قد هاجمني فهاجمته قائلة: لا يوجد شيء من هذا، من قال إني أود رؤيتك من الأساس.

لمعت عيناه ببريق أعرفه، بريق لا يشابه غيره، قال بثقة العارف: فريدة ستأتين، أنا واثق من هذا.

أجبت بعناد شديد: لن آتي ما الذي يجبرني؟.

امتنع عن مشيته ووقفت بدوري، نظر لعيني بعمق فاهتز جسدي كأنما قد تسلل داخل روحي بنظراته، تقلصت ابتسامته فما عاد منها سوى شبه ابتسامة دلت على حيرة مما هو آت، قال بصوت تسرب برفق داخل عروقي: إن أتيتِ سأعلم حينها أنكِ تبادلينني المشاعر يا فريدة.

توقف الزمن للحظات وعم السكون، خلا العالم إلا من نظراته التي جمعت بين الحب والشوق والحيرة وكثيرًا من الرجاء، لم أجبه، وبم أجبه؟! هل حقًا قال إنه يكن لي المشاعر؟ يا إلهي ما الذي يحدث؟

وضعت يدي على قلبي أهدئ نبضاته النافرة، وهربت من أمامه، لا أدرى لمَ هربت، خجلًا؟ حبًا؟ أم خوفًا مما هو آت؟ لم أعرف ولكن ما عرفته هو شعور

الأمان حين وجدته يتبعني قائلًا كلمات مفادها بأنه سيوصلني وينتظر قدومي لحفلة عيد ميلاده غدًا.

هرعت إلى غرفتي ما إن وصلت إلى المنزل، وقفت أمام المرآة أنظر لصورتي المنعكسة داخلها، وجدتني أتنفس بسرعة بالغة كما لو أنني جئت من سباق أبدي، نظرت لملامحي المعتادة عليها، ويالللعجب وجدت بريقًا لامعًا ظهر بها، شيء ما أضاف لي جمالا من نوع خاص، لم أكن يومًا فتاة تشكو من قلة جمالها ولكن الآن أقسم أن ملامح وجهي أصبحت تتنفس، سحر غريب أضاء عيناي، وأكسبهما لمعة جذابة، وجدت صورتي في المرآة تبتسم لي، اتبعت الابتسام بضحكة خفيفة جزلة، يا إلهي قلبي منتشى! هل أحبه؟ أظن هذا فقربه يحلو لي، ولكن متى أحببته؟ ولمَ أحببته؟ لا يعقل أني أحببته بكل تلك السرعة فأبدًا لم أكن فتاة متسرعة! دققت النظر لعيني اللامعة مرة أخرى وبصوت مسموع همست" ولكني معجبة به " هناك شيءٌ ما به يجذبني، الخطين بجانب عيناه، ابتسامته العذبة، نظرته المبهمة، شيءٌ ما بشخصيته غريب، هل أحبه؟

انتفض جسدي حين طرق الباب فجأة وظهرت أم سمير من خلفه متسائلة بقلق: أخبرتني خالتكِ أنكِ توجهت إلى الغرفة مباشرة لدى عودتك، أخبريني هل أصابكِ مكروه؟! هل أساء لك بشيء ماهر؟

أخذت تلوح بيدها وهي تتوعد: فقط أخبريني وسوف أذهب إليهم أفقع عيونهم واحدًا تلو الآخر انتهاءًا به.

ضحكت بجزل ولا أعلم إن كانت ضحكتي لمبالغتها في الخوف عليّ، أم لما حدث اليوم؟! اكتفيت بالإجابة: أبدًا لم يسيء إلي بشيء فهو شخص رائع، رائع للغاية.

حدقت بي لثواني ثم قامت بمحاكاة حديثي الولهام: رائع، رائع للغاية!!

عاد صوتها إلى سيرته الأولى وهي تجلس أمامي على السرير: هيا يا فتاة أخبريني كل شيء، أنا أعلم من البداية، هناك شيء ما بينكما.

جلست جوارها وأنا أتظاهر بالنعاس وقلت بصوت خامل: غدًا سأحكي لكِ.

كنت أحاول تملقها بقبلة ولكنها أبعدتني عنها قائلة بحنق:

بنت أخبريني الآن وإلا قتلت خالتك.

ضحكت وقلت لها ببساطة: لقد دعاني لحفلة عيد ميلاده غدًا.

ظلت محدقة بي منتظرة تتمة الحديث وحين لم تجدني أكمل، اتسعت عيناها اندهاشًا وقالت بينما تلوي شفتها : أهذا فقط ماجعلكِ هكذا؟!

نهضت بخيبة وهي تبرطم: وتقول إنها غير معجبة به!!

ارتميت على فراشي ما إن خرجت وبسمة شفتاي لا تريد أن تبرحهما، إن أم سمير محقة، إني حقًا معجبة به.

**

مع أول شعاع شمس تسلل إلى غرفتي كنت قد استيقظت من النوم، هاجت بداخلي المشاعر لم أكن قادرة على تحديد أيًا منها الطاغي، ربما حماس للذهاب، أو خوف من الإعجاب، بل تردد من كل شيء، ماذا إن كان مجرد إعجاب عابر وسيفنى مع الوقت؟! ماذا إن قدمت له راية الاستسلام فأشبعت غروره الذكوري وتركني وحيدة في منتصف الطريق! أخشى الذهاب فأكون قد أعلنت له حبي صراحة، وأرتعب من عدم الذهاب فأكون خسرت حبًا صادقا، أرهق عقلي وحار قلبي، فالأول يخشى المجهول ويخاف التسرع، والثاني يدق دقات ذات لحن غير معهود بالنسبة لي، لحن جميل أضاف لنفسي شيئًا من البهجة، إحساس رائع لم أشعر به من قبل.

طرق الباب وانشق عن أم سمير التي أصبحت لا تنتظر إذني للدخول، تقدمت بسرعة ملحوظة وبحماس جلست أمامي وقالت بابتسامة عريضة: خذي هذا من ماهر.

نظرت ليدها الممدودة بظرف والتقطته منها فقالت بعد أن قرأت علامات الاستفهام على وجهي: لقد أتى وتركه لكِ، قال لي إنه في انتظارك هيا اقرأي ماكتبه لك.

قلبت الظرف بيدي وانتظرت منها الخروج وترك مساحة لي كي أقرأه، لكنها ظلت مكانها تتطلع لمعرفة ما كتب لي، فلم أجد غير أن أطلب منها صراحة الخروج، فقالت بكل ثقة: لن أخرج أود معرفك ماكتبه لكِ.

رفعت حاجبي بدهشة حتى شعرت بهما التصقا بمقدمة شعري: ماهذا التطفل!

وضعت قدمًا فوق الأخرى، وبتغطرس قالت:

لا عزيزتي لست متطفلة وإنما هو حب استطلاع، وإن كنت متطفلة حقًا لكنت قرأته قبل أن أعطيكِ إياه.

عقد لساني من جرؤتها في الحديث وثقتها بمنطقها هززت رأسي بيأس فقد أدركت استحالة خروجها، هذه المرأة ستفقدني عقلي، فتحت الظرف تحت نظراتها التي شعرت بها ستقفز داخله ولكني نسيت وجودها حين قرأت ماكتب بخط يده

" صباحك فريد مثلك يافريدة، أرجو منكِ أن تضعي عقلكِ الآن جانبًا واسمحي لقلبك شيئًا من التنفس، أنتظر قدومك كي تنيري حفلتي وتنيري كوني كله.. أنتظركِ بكل اشتياق العالم"

أنهيت القراءة وقلبي يتراقص طربًا، هدأت روحي وكأنما كانت كلماته ما ينقصني، وكزتني أم سمير بكتفي ففزعت إذ كنت نسيت وجودها، نظرت إليها بلوم لأجدها تغمز بخبث وبنبرة غريبة قالت: أمتأكدة أنتِ أنه مجرد حفل عيد ميلاد.

وجدت نفسي أجيبها بهلع: لا بد وأن أشتري فستانا أذهب به.

نهضت من أمامي فزعة وكأنما مستها كلماتي بماس كهربائي، وقالت وهي تخرج من الغرفة مهرولة: هيا اجهزي كي نذهب لشراء أجمل فستان لكِ.

نظرت مدهوشة لباب الغرفة الذي أغلقته خلفها، إن هذه المرأة غريبة الأطوار حقًا، لكني أحبها!

نهضت والبسمة لا تبرح شفتاي، ارتديت ثيابي بعد أن استحممت على عجل إذ كانت أم سمير تصيح بي أن أتعجل، ذهبت معها وأنا أفكر في أي لون سيكون من الأفضل أن أرتديه، ولكني أخذت قراري حين أبهرني فستان وردي اللون بإحدى المحلات، كان رقيقا ناعما أخذ أنفاسي حين ارتديته وبدوت فيه آية في الجمال كما قالت لي أم سمير والعاملة بالمحل التي بدت لي مألوفة إلى أبعد الحدود، بل إني سألتها أكثر من مرة إن كنا قد تقابلنا من قبل لكنها أجابت بالنفي.

أتى المساء محملًا بنسيم الشوق، وعطر الحب وقفت أمام المرآة أضع آخر لمسات التجميل تحت أنظار خالتي وأم سمير اللتان كانتا متحمستان مثلي بل أكثر، ألقيت نظرة أخيرة على هيأتي بالمرآة، وتوجهت للخارج تلحق بي دعوات خالتي بأن يحفظني الله من كل عين سوء، كانت قدماي ترتعشان مع كل خطوة أخطوها، دقات قلبي نافرة وكأنما كنت على وشك الدخول بحرب ما، حاولت تهدئة أنفاسي ولكن باءت محاولاتي بالفشل حين رأيته ينتظرني أمام منزلهم، كانت الأنوار منعكسة فوق وجهه فأضافت له بهاء فوق بهائه، أما حلته الرمادية فقد ألقت بي في عالم آخر، ياإلهي لكم كان غاية في الجمال، استقبلني بابتسامة شعرت بها قادمة من أعماق قلبه، إذ ارتسمت السعادة فوق ملامح وجهه، قال بصوت غلفه الجزل: لا أصدق أنكِ أتيتِ.

أخذت أعبث بفستاني ولم أعلم ما يجب علي قوله، فبادرني بقوله: تبدين آية في الجمال.

أجبته بنبرة حملت كل معاني الخجل إذ كنت كفتاة مراهقة تستمع لكلمات الغزل لأول مرة: شكرًا لك.

قال وقد بدت عليه سعادة العالم: هيا لندخل إذًا فالحفل ينتظركِ كي نبدأ.

نظرت ليده المشيرة نحو باب منزلهم وكأنما يرشدني نحو الطريق ثم أخذت نفسًا عميقًا إذ شعرت أن الحفل حفلي وليس حفله هو، وبخطوات خجلة سرت معه لندخل سويا...

(الفصل الثامن)

سرت جواره ولا أدري لم شعرت وكأني ملكة تقاد إلى عرشها، شحذت نفسًا عميقًا ما إن دلفنا داخل المنزل، وجدت المنزل مكتظا بعدد لا بأس به من الحضور، قبلتني السيدة سعاد وسرعان ما وجدت نفسي داخل أحضان جميلة، ثم ألقيت السلام على حسن الذي بدا لي شاحبًا كما لو أن الدم ذهب من عروقه، كدت أسأله عن حاله لولا أنا لفتت نظري فتاة مرت بجوارنا التفتت إليها ولكنها اختفت بين الحضور، كان ماهر يثرثر جواري بكلمات لم تلتقطها أذني،

ليس لصخب الموسيقى وإنما لما رأيته من منظر هلع قلبي، كنت أتصبب عرقًا وأصبحت قدماي ثقيلتان، شعرت بلفحة برودة ارتعش لها جسدي وأنا أرى ماحدث معي بالحافلة يتكرر مرة أخرى، أوجه كثيرة مألوفة إلى حد مثير للسخط، أعرفهم جميعهم سبق ورأيتهم أقسم، ولكن أين ومتى وكيف؟ لا أعلم شيئًا.

هزني ماهر بعنف وأتى صوته بعيدًا جدا كما لو كان من داخل بئر: فريدة ما بكِ؟ أتسمعينني؟

زاغ بصري وأنا أنظر للأوجه حولي فرأيتهم جميعًا ينظرون إلي بشماتة حقيقية، يضحكون باستفزاز كما لو أني مجنونة، جاء حسن وجميلة كي يطمئنان علي وقد علمت من نظراتهم الهلعة أني لست أبدًا بخير، تحدث حسن بكلمات مبهمة لم أتبين معانيها، ولكني أجفلت حين تبدلت هيأته إلى الشكل الذي رسمه له باهر في لوحته، جُنت أنفاسي حتى كدت أصرخ بهم، ولكني تمالكت نفسي وركضت خارج المنزل أجر قدماي الثقيلتين جرا، تبعني ماهر وأمسك بي كي يوقفني وبصوت هادر سأل: فريدة أنتِ لست طبيعية أخبريني ماذا يحدث؟!

صرخت به بكل ما أوتيت من قوة: ماذا تريد أن تعرف؟ أنا لا أدري ماذا يحدث، أنا هي من تحتاج أحدًا يوضح لها الأمر.

أوقفت حديثي كي أشحذ نفسًا أعطي به بعضًا من الأكسجين لصدري، أمسكني ماهر من كتفاي وحينها شعرت بجسدي الذي أخذ يهتز بجنون، بنظرات هلع وصوت تقطر بالخوف قال: فريدة يجب أن تهدئي، أنتِ لا تتنفسين أرجوكِ تنفسي بعمق واهدئي اهدئي ..

كان يتنفس بعمق كي أحيك طريقته وبالفعل فعلت حتى انتظمت أنفاسي ولكن لم يهدأ انفعالي. نظر لأم عيني وبترقب سألني: ماذا حدث بالداخل كي يحدث لكِ كل هذا؟

مرة أخرى شعرت بالأرض تميد بي، وبصوت مختنق أجبت: ليس فقط بالداخل.

أكملت بصوت مهزوز يشوبه البكاء: ما يحدث معي يحدث بكل مكان، الحافلة، الشارع، وحتى بمنزلكم أصبحت لا أفهم شيئًا، حقًا لا أعي شيئًا مما يحدث معي، أنا لن أقدر هكذا حقًا لن أقدر.

منعني من استئناف حديثي: فريدة فريدة اهدئي، لا يوجد داع بأن تقصي علي شيئًا الآن.

قادني إلى سيارتهم واتخذ مجلسه جواري، بينما كنت أجاهد كي لا تفر دموعي قال بصوت يحرمه الخوف: حسنًا سنذهب الآن إلى إحدى المقاهي عند البحر كي تهدأ أعصابك.

قال جملته وقاد السيارة يزورنا الصمت المزعج، نظرت إليه وإلى ملامحه التي سبق ورأيتها بأحلامي، لم تكن من نسج خيالاتي كماظننت، بل هو ذا شخص حقيقي أمامي، تذكرت حسن وصورته التي طفرت لذهني حين رأيته، تذكرت صورتي التي رسمها لي ماهر قبل أن يراني.

"فريدة، أرجوكِ كوني بخير"

نظرت إليه من وراء غلالة الدموع بعيني وأدركت قلقه حين وجدني أمسك برأسي، ابتسمت له بضعف لا أدري أكنت أطمئنه أم أطمئن نفسي، يكاد يجن عقلي وهو يبحث عن كل تلك الأوجه المألوفة التي بدأت تقفز أمامه دون سابق إنذار، ما الذي يحدث معي بالظبط، هل فجأة أصبحت أعرف كل الناس، واللوحة؟ صورة حسن؟ صورتي؟ ماهر الذي سبق ورأيته بأحلامي؟؟

" فريدة!!!! "

أتى صوت ماهر كالجرس الذي أفزع عقلي من سبات مزعج في عالم التفكير، جفلت حين وجدته جواري بعد أن أوقف السيارة أمام إحدى المقاهي وفتح لي الباب كي أترجل من السيارة، وبحركة بطيئة ترجلت كما لو أن ثقل جسدي أصبح فجأة أضعاف ثقله الحقيقي، حاول مساندتي لكني أشرت له ألا يفعل، أنا لست مريضة أو ضعيفة ولا أحب أن يفعل ما يشعرني بهذا، جلسنا بالمقهى وتنسمت عطر البحر الذي تخلل جسدي كدواء حلو المذاق ينقيه من الشوائب،

أخذت نفسًا عميقًا وزفرته ببطء، نظرت لماهر الذي كان يرمقني بنظرات قلقة وبصوت وجل طلب مني أن أتناول القهوة التي طلبها لي، نظرت إليها بفتور ثم نظرت إليه، كان وجهه مرسومًا من الخوف، عيناه مثالا للرعب شيء ما داخلي أراد الإفصاح عما يعتمل بصدري، إحساس قوي بأنه سيتفهمني ويزيح عني شيئًا من التوهان داخلي، خرج صوتي مرتعشًا وكأني سأفصح سرًا ما: ماهر أنا تحدث معي أشياء غريبة.

قال بتلهف: أخبريني وسأساعدك.

مسّ صدقه روحي وزلزل خوفه الحقيقي كياني، أمسكت بفنجان القهوة أمامي وكأني أحتمي به وبدأت سرد كل ما حدث معي بدءًا من الحافلة وانتهاءًا بحفلة عيد ميلاده التي لم يحتفل بها من الأساس، أنهيت كلامي وأنا أنظر لوجهه كي أقرأ تعابيره، رأيته ينظر إلي نظرة حملت الكثير من المشاعر، جزء منه يصدقني ولكن عيناه تنظران إلي بشيء من الانبهار وكأنه طفل وقد قصصت عليه قصة سحرية، سألني بنبرة غريبة: هل تقولين أنكِ رأيت صورة حسن التي رسمتها أنا من قبل؟

كان يفكر فأجبته: نعم

سأل مرة أخرى وهو ينظر إلي بدهشة تتفاقم أكثر وأكثر: ورأيتني بحلمك؟

أجبته: نعم، ثم أكملت بعصبية: هل تصدقني أم أنك ستظل تسألني طوال الليل هكذا؟؟

اختفى اندهاشه وتبدل بطمأنينة عجيبة، هز رأسه وكأن هناك خاطر ما جاء له وقد رفضه، تناول يدي برفق وقال بنبرة هادئة لمست قلبي بشيء من الهدوء: تعالي معي الآن سأريكِ شيئًا هاما.

سحبني خلفه وأنا أتساءل: إلي أين؟.

أجاب بنبرة غريبة دون أن ينظر إلي :

إلي غرفتي السرية.

(الفصل التاسع)

ظللت أسأله طوال الطريق ونحن عائدان إلى غرفته السرية كما يدعوها: لم نحن ذاهبان الآن؟ وما علاقة غرفتك بما أقوله؟!

ظلت نظراته مثبتة على الطريق أمامه، كانت عيناه زائغتان وكأنما يبحث عن شيء ما في الهواء لا يراه أحد سواه، أغضبني كونه لا يجيب علي فصرخت هذه المرة: ماهر أجبني.

لف مقود القيادة فانحرفت بنا السيارة إلى طريق جانبي، قال وما زالت نظراته زائغة: هذه الغرفة هي أصل كل شيء يا فريدة.

أجبته وقد تسرب شيءٌ من الخوف لقلبي مصدره نبرة صوته المتغيرة: كيف هذا؟

لم يجبني ولم أنتظر أنا رده، حدقت في الطريق أمامي وقد اعتراني خوف أبدي، عمنا صمت مميت كما لو أن الدنيا قد خلت إلا من كلانا، وصلنا بعد دقائق بدت أزلية، أمسك بيدي وقد وصلني خوفه الغريب من أن أهرب منه، شعرت بتوجسه فضاعف خوفي أضعافًا، لم أكن أفهم شيئًا مما يحدث معي، ولكني بشكل أو بآخر مسيرة لديه، ترى ما الذي يريده من هذه الغرفة؟!

هبطنا درجات السلم كما قد فعلنا بالمرة السابقة، أنار الموقد وجلس على كرسي أمام لوحة كبيرة مغطاة بملاءة بيضاء، نظر نحوي بعيون منكسرة ونظرت إليه باستفهام، كان يقرأ الأسئلة التي تدور بذهني، قال ومازالت نظرة الانكسار مغلفة لعينيه: فريدة كل شيء بدأ من هنا، أنتِ ذاتك بدأتي من هنا.

شعرت بجبيني يتغضن إذ كنت أحاول ربط كلماته بما يحدث ولكني لم أفهم: ما الذي تقصده على وجه التحديد؟!

تنهدت بضيق وملامحه المرحة تتبدل إلى ملامح حزينة أراها على وجهه لأول مرة: أنتِ رسمة من رسوماتي يا فريدة، مجرد لوحة من لوحاتي الكثيرة التي دبت فيها الحياة.

بتر جملته وهو يزيل الملاءة البيضاء لتظهر اللوحة من تحتها، كانت مقسمة لعدة أجزاء، شعرت برأسي شق نصفين حين رأيت أمي تحملني وأنا رضيعة في جانب اللوحة، وعلى الجانب الآخر أقف بعد أن أصبحت شابة بزي التخرج، وأعلى

اللوحة توجد رسمة أخرى لي في سن المراهقة، أخذت أتنفس بسرعة وكأنما كنت في عدو أنهيته للتو، نظرت لماهر لا أعي شيئًا، صرخت بصوت خرج مبحوح: أنا لا أفهم شيئًا.

غلف عيناه الانكسار، وتقطر صوته حزنا: في البداية كنت أظنها مجرد مصادفات. تنهدت بعمق وكأنما على وشك البدء بمعركة ما وأكمل: ولكنها حقيقة، حين أعيش شيئًا وأرسمه، يصبح حقيقة أمامي بعد أيام، وها أنتِ ذا أمامي، ولكنك مختلفة لا أدري لم أنت بالذات تريين ما رسمته يداي ...

صرخت به قبل أن يكمل: كم أنك أحمق كبير، هل تريد مني تصديق هذا الهراء؟! أتنتظر أن أصدق بأني مجرد رسمة لديك؟! أكل حياتي السابقة هي من صنع يديك؟!

صرخ بي يائسًا: لست أنتِ فقط.

وقف يزيل الملاءات من فوق اللوح بهستيرية لتظر أمامي رسومات للأشخاص التي كانت تظهر لي وكأني أعرفها، صورة والدته، صورة حسن، حتى البواب عم محمود، والمزيد من الصور لجميع من سبق ورأيتهم مقربين لعقلي!!

ظللت أخطو للخلف بأرجل مرتعشة وأنا أشير له نافية: كل هذه صدف، مجرد صدف فلا يوجد دليل واحد على قولك هذا.

وضع رأسه بين يديه بيأس، وأخذ يفرك شعره وكأنما يريد إزالته من رأسه:

صدقيني أنا أيضًا يصعب علي تصديق شيء من هذا، ولكن هذا يحدث معي منذ كنت في الثامنة، كنت أرسم ثم أجد ما رسمته حقيقة ماثلة أمامي.

سكت فجأة ثم نظر إلي وسألني بهدوء مخيف: ألا تتساءلين أين أمك الآن؟ ولمَ لم تهاتفك منذ مجيئك الي هنا؟

تنبهت حواسي، فأنا حتى لم أفكر بها منذ مجيئي، أكمل بنفس نبرته: هذا لأني لم أرسمها معكِ بعد ذلك.

صرخت به وأنا أضع يداي علي أذني لا أريد أن أسمع شيئًا مما يقول: كف عن هذا الهراء، أرجوك لا تعذبني أكثر، أنا لست من صنع أحد أرجوك كف عن هذا الهراء..

نظر إليّ بخيبة أمل كبيرة وكأنما قلت له شيئًا لم يكن ليتوقعه، انتظرت منه المزيد من المجادلة ولكن بدلًا من ذلك اتخذ مكانه على الكرسي بعد أن وضع لوحة فارغة أمامه وجهز الألوان كي يرسم لوحة وبالفعل شرع في الرسم تحت نظراتي المذهولة، قال بصوت بدا غريب عنه: غدًا ستأتي والدتك، ولن تكون حزينة منكِ لإهمالك لها بل على العكس ستطلب منكِ الذهاب إلى البحر سويا، بعد أن تخبركِ بأنها تود الزواج!!

كان يتحدث بطريقة هيستيرية جعلت الخوف يتسرب داخلي،. ما إن أنهى جملته حتى بدأت عيون والدتي تظهر أمامه على الخلفية البيضاء، هالني مشهده وهو يرسم وكأنما اندفع داخل عالم آخر أصبح لا يشعر بوجودي، جن قلبي وأصبح يدق فزعًا فتحسست الحائط خلفي وبكل قوتي اندفعت لبيت خالتي أركض بهلع، أركض ولا أدري مم أهرب؟ هل أهرب من ماهر أم من لوحاته؟ أم أهرب من كلماته الحمقاء؟ يقول إني مجرد رسمة؟! ماهذا الهراء؟ لكن ماذا إن كان صحيحًا؟! ماذا إن كنت إحدى رسوماته المتمردة، التي كانت جميعها وبدون تحديد لوحات لأشخاص سبق ورأيتهم؟ ولكن لا من يصدق هذا الهراء؟ أنا لست رسمة أحد.

انسللت لفراشي دون أن أغير ثيابي، أغلقت الباب خلفي بالمفتاح وتركت أم سمير تدق الباب بتطفلها المعهود، كان جسدي يرتعد تحت البطانية، كنت أحيط نفسي بذراعي وكأنما أحتمي من المجهول، ذعر حقيقي تملك مني، أشعر بكل ذرة بجسدي تئن وجعًا، أنفاسي ثقيلة وكأنما أجتهد كي أبقي عليها، عيني تخرج حرارة ولكني أبدًا لا أبكي، لا أحب البكاء ولم تذرف عيناي يومًا دمعة واحدة، ولكني الآن بالذات في أمس الحاجة للبكاء، لم لا أبكي أبدًا؟!

تلك الأوقات التي تصبح حياتك محاطة بالضياع والتوهان، وحين تحاول فك الشفرات تظن في البداية أنك في الطريق إلى الاستيعاب ولكن تظهر لك الحقيقة خلف رداء الحيرة فتدرك أنك لا تفقه من الأمور شيئًا ثم تقترب أكثر فأكثر علّ

رداء الغموض ينخلع ولكن ما إن تقترب حد الفهم سرعان ماتطرق مطرقة الحقيقه فوق رأسك معلنة راية الإنكار ليصبح كل شيء مبهما حتى الحقيقة ذاتها.

(الفصل العاشر)

كان رأسي يدق وكأن به منبه لا يتوقف عن الرنين، أنفاسي مضطربة وأنا متكورة على سريري في وضع الجنين، بعينين تشعان نارًا كنت أنظر للنافذة من وراء الغطاء، اعتراني خوف شديد حين بدأت أشعة الشمس في السطوع، كيف مر الوقت بهذه السرعة؟ وكيف انسل الليل هاربًا دون أن يعطيني بعض النوم كي تتجدد داخلي شيئًا من الطاقة!!

تحفزت حواسي حين طرق الباب، وثب قلبي بين أضلعي وكأني كنت في متاهة ما وجاءت صوت الطرقات كبوابة للواقع، تحاملت على نفسي إذ كان جسدي ثقيلا للغاية وبجهد شديد نهضت وتوجهت لفتح الباب، شهقت بفزع وعيناي شعرت بهما انفجرتا في موضعهما عندما انشق الباب عن أمي!!

تذكرت ماهر، اللوحة وملامح أمي البادية بها، كلماته التي بدت بالنسبة إليّ محض هراء.

" فريدة " نادتني أمي بحب، وسرعان ما غمرتني داخل شلال حنانها، ودفء ضمتها، أمان شديد اعتراني وكأنها حملت لقلبي سحرا من

نوع خاص، سحر أخفي ما كان يعتمل داخلي من رعب وفزع، كانت تمسد على شعري بدفء حقيقي، فقلت بصوت باكي:

أمي هل أتيتِ حقًا.

أخرجتني من أحضانها ونظرت إلي بحنان لا مثيل له: نعم حبيبتي فقد اشتقت لكِ كثيرًا

شعرت بالأسى يتقطر بصوتي قائلة: أعذريني أمي لأني لم أكن أهاتفكِ.

جاء رد فعلها غير متوقع إذ كنت أنتظر وابلًا من التوبيخ والتقريع، ولكن بدلًا من ذلك توجهت للفراش وجلست عليه وهي تشير إلي كي أجلس جوارها، اتخذت موضعي بجانبها وأنا أراقبها بدهشة وتوجس، لم أمي بكل هذا البرود المفاجئ؟!

تناولت وجهي بين كفيها مثلما تفعل دائمًا، وقالت بعينان تشعان إثارة وحماسا: فريدة أمك وقعت في الحب مجددًا

ماس كهربائي سار بجسدي مصدره يداها، وبفزع شديد أزلتها من فوق وجهي ووجدت نفسي أصرخ بها وهي تنظر إلي بهلع من ردة فعلي المفاجئة والنافرة بالنسبة إليها: ماذا تقولين أمي؟ أنتِ تحبين أبي لا تفعلي شيئًا كهذا؟ ألست أنتِ من تقولين أنكِ لن تنسيه أبدًا؟ ألست أنتِ المرأة التي لا تستطيع النوم في فراش آخر غير ذاك الذي كان يضم جسد والدي؟

وقفت أمامي واقتربت مني بهدوء، ومن بين دموعها قالت بنبرة تشي بالإرهاق: ولكن قلبي لا سلطة لي عليه يا ابنتي، لم أنس أباك ولن أنساه أبدًا، ولكنه الحب يدق بابنا حين نظن أن القلب من الحياة قد مات.

تراجعت للخلف وأنا أحدق بها برعب، كانت قدماي تهتزان وكأني ثقيلة عليهما، أفجع قلبي ما تقوله، ليس لأنها تحب غير أبي، ولا حتى خوفًا من أن تنساه كما تظن، ولكن من كون مايحدث هو تجسيد حي لما قاله ماهر، اصطدمت بالحائط خلفي فشعرت بالغرفة تضيق بجدرانها كي تضغط على جسدي تهشمه، اختنقت أنفاسي وحل شبح الرعب بداخلي، ركضت هربًا بعد أن كان آخر مشهد رأيته هو عيون والدتي المرتاعة من حالتي الغريبة تلك.

وصلت لغرفة ماهر بأنفاس هاربة، لم أطرق الباب بل دفعته ودلفت، تسمرت مكاني حين وجدته جالسًا على نفس الكرسي كما كان يفعل ليلة أمس، ولكنه كان ينظر إلي بتعب وإرهاق شديدين، وخلفه اللوحة التي بدأ بها وكانت قد انتهت.

غاص قلبي مكانه، وخارت قواي حين رأيتها فارتمى جسدي فوق درجات السلم خلفي، لقد كانت أمي تنظر إلي مرتدية ثوب زفاف!!

وضعت رأسي بين يداي وقد شعرت بصداع عنيف يغزوه، أصبحت فروة رأسي كالفرن المشتعل وشعري هو النيران الملتهبة، أي ألم هذا الذي أشعر به؟ هل يتوجع جسدي بدلًا من المشاعر النفسية؟!

" أعلم أن الأمر يصعب تصديقه، ولكنها الحقيقة ولا أدري لمَ أنتِ بالذات من بين رسوماتي التي يحدث معك هذا! "

جاء صوته متعبًا مرهقًا وكأن حنجرته تجاهد من أجل البقاء، ظللت ممسكة برأسي عاجزة عن فهم مايدور بداخلي، لا أدري إن كنت خائفة مما يحدث معي؟ أو حزينة من أن أكون مجرد رسمة لماهر؟ أم محبطة من خسارة نبتة حب كانت تلوح في الأفق؟ أم غير مصدقة لما يقوله من الأساس!!

" ولمَ أنت من دون الرسامين يحدث معه هكذا؟!"

نظرت إليه لتتلاقى نظراتي بنظراته المندهشة، كان متعجبًا من سؤالي وكانت دهشتي أنا نفسي لا تقل عنه، أجاب وشيئًا يظهر بملامحه من الانتشاء بوجود من يستمع إليه:

لا أدري حقًا، ولكن هذا يحدث معي بعد حادثة تعرضت لها بصغري، منذ كنت في الثامنة، حين نسيتني والدتي هنا بهذه الغرفة حين كانت تنظفها.

أشار لإحدى الزوايا وأكمل: كنت مستغرقًا باللعب هنا في هذه الزاوية وكانت قد نسيت وجودي فخرجت وتركتني وحدي مع الخوف والظلام.

تنهد بثقل وأكمل بعينين زائغتين: أذكر أن روحي هلكت من كثرة البكاء ورأيت أو تخيل إلي أني رأيت الكثير من الأناس معي بالغرفة، ومن كثرة الرعب فقدت وعيي.

هنا ثبت عيناه الحمراوين صوبي، أكمل وقد حملت نبرته خوف العالم: وحين استيقظت وجدت نفسي بأحضان والديّ، ثم بدأت بعدها أخرج خوفي على هيئة رسومات للأشخاص داخل الغرفة، وهنا بدأ يحدث معي ما قلته لكِ، كنت حين أرسم أحدهم يظهر حقيقة بحياتي بطريقة أو بأخرى.

- هل قصصت لأحد ماحدث معك؟

هز رأسه بيأس: حاولت إخبار حسن مرارًا وتكرارًا ولكنه كان يكذبني في كل مرة إلى أن توقفت محاولاتي لإخباره.

اعترتني رغبة قوية بضمه لصدري، والتربيت على كتفه وطمأنته أني جواره، ولكني بدلًا من قول شيء يواسيه سألته وقد توجس قلبي خيفة من جوابه:

لمَ رسمتني إذًا ؟!

تطلع إلي بدهشة وكأنما لم يكن يتوقع سؤالي، بارتباك شديد أجاب وهو يفرك أصابعه:

كانت محاولة لتجسيد فتاة أحلامي، وكنت أعلم أنكِ ستظهرين أمامي في يوم من الأيام.

أغمض عيناه بشدة وكأنما يود لو يعتصرهما ثم أكمل وهو يسبر أغوار عيناي: ولكن لا أجد تفسيرًا لما يحدث معكِ، ولم أنتِ بالذات ترين رسوماتي؟

تثاقلت أحزان قلبي، نهضت بثقل وكأن الحزن له وزن، خرجت من الغرفة اللعينة وفجوة كبيرة داخل قلبي أشعر بها هوة ساحقة تحرق كياني، ألم شديد ينبع منها لا أقدر على تحمله، قادتني قدماي إلى البحر ولأول مرة يفشل هواؤه في مواساتي، ظل الألم بصدري يتفاقم والفجوة بقلبي تزداد عمقًا، إن روحي تتألم وتئن وجعًا، جلست فوق الرمال بجسد محمل بانكسار فرحة الحب في بوادره، بانكسار حياة بأكملها، بانكسار قلب ظن ولوهلة أنه محور لحياة جسده، نظرت للبحر بأعين تائهة ونظرات شاردة، هل هذه هي النهاية؟ أهذه نهاية قصتي التي بدأتها لوحات ماهر؟! جاءني خاطر بأن أنظر لقدامي فشهقت فزعًا حين رأيتها تتحول لرمال مماثلة للرمال حولها، كانت مثل طوفان من الرمال مصدرها جسدي، جاء صوت ماهر داخل رأسي محمل بالأسى والحزن الشديدين

" سامحيني يا فريدة فأنا شخص جبان، بدأت حياتكِ ولست قادرًا على إنهائها، سأحرق كل لوحاتك لأنهي عذابك، فأنا لست قادرًا على رؤية نظرة التوهان بعينيكِ مرة أخرى، سامحيني فريدة واعلمي أني أحبك حقًا"

اعتصر قلبي حزنًا حين اعترف لي بحبه، أي حب هذا الذي هو من صنع صاحبه، أي مشاعر تلك التي يختارها الإنسان بنفسه ولا تطرؤ على قلبه، كنت أنظر لجسدي الذي يتحول لرمال بأسى وانكسار وأدركت أخيرًا أنها اللحظات الأخيرة...

تلك الأوقات التي تصبح حياتك محاطة بالضياع والتوهان، وحين تحاول فك الشفرات تظن في البداية أنك في الطريق إلى الاستيعاب ولكن تظهر لك الحقيقة خلف رداء الحيرة فتدرك أنك لا تفقه من الأمور شيئًا ثم تقترب أكثر فأكثر علّ رداء الغموض ينخلع ولكن ما إن تقترب حد الفهم سرعان ما تطرق مطرقة الحقيقة فوق رأسك معلنة راية الإنكار ليصبح كل شيء مبهما حتى الحقيقه ذاتها!!

تمت

.....